ألـم رصـــاص

اسم الكتاب: ألم رصاص
اسم الكاتبة: نرمين عشرة
تدقيق لغوي: أحمد المنزلاوي
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – 2021 م
رقم الإيداع: 2021 / 2173
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6852 – 30 – 3

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

ألـــم رصـــاص

رواية

نرميـــن عِشـــــرة

للنشر والتوزيع
Arabic Library

إهداء

إلى من ألهمني كتابة تلك الرواية

إلى كل من يتألم في صمت

إلى الباحثين عن شعاع أمل وسط ساحات الألم

إلى مرضى فيبروميالجيا

1

حجر يكبس على صدري، يضغط على ضلوعي، يكاد يمزقها؛ ليدهس رئتي، ويخنق فؤادي، الاختناق يتزايد ليصل إلى عنقي، فكأن حبلًا يلتف حولها ويزداد ضيقًا حتى يكاد يزهق روحي معه قبل أن أستيقظ مفزوعة لأجدني نائمة على فراشي، نظرت حولي لأستريح لصفاء اللون الأبيض الذي يطلي حوائط شقتي أنا وزوجي، لقد أحببت هذا اللون واخترته؛ لأنه يحسّن حالتي النفسية ويمتص الطاقة السلبية.

شعرت برصاص يخترق أضلعي يكاد يمزّقها، حاولت التقاط أنفاسي التي تعززت على أن ألتقطها مع تسارع دقات قلبي، وكأنه يجاهد من أجل البقاء على قيد الحياة، لم يكن الأمرغريبًا بالنسبة لي؛ فقد اعتدت ذلك منذ أكثر من عام، لا أعرف ما سبب تلك النوبة التي تنتابني بين حين وآخر، ولكني قررت الاعتياد عليها وعدم الاكتراث بها؛ حتى لا يجنّ جنوني وأصبح مريضة نفسية كما يظنون.

التقطت هاتفي المحمول من أسفل وسادتي، إنها التاسعة صباحًا، لمحت التاريخ، إنه 4 مايو يوم عيد ميلادي، لم يعد لدي المساحة الكافية للاحتفال بمثل هذا اليوم بعد أن تهت في دوائر العمل وأعباء الحياة، ولكن حتمًا سيحضّر لي زوجي مفاجأة كعادته منذ ثلاث سنوات فترة زواجنا،

أتذكر آخر احتفالية عندما عدت من العمل ففوجئت باحتفالية مثيرة جمع لي جميع أحبابي وأصدقائي؛ ليطفئوا معي شموع الأعوام الماضية وأبدأ عامًا جديدًا بأصوات الألعاب النارية التي عادةً ما أرتعد لصوتها، إلا إنهم يتعاملون معها على أنها صوت فرحة.

قررت النهوض لتناول الفطور الخفيف الذي اعتدت عليه مع القليل من "النسكافيه" قبل الذهاب إلى العمل، لكن خانتني رجلي؛ فقد ثقلتا وتيبستا فلم أستطع تحريكهما، وكأنهما قد بلغا من الوزن نحو الطن، يا إلهي ما هذا الشعور المخيف بالعجز، ربما عليّ أن أنهض تدريجيًا. رفعت رأسي واستندت على وسادة صغيرة لأخذ نفس عميق، سمعت دقات الهاتف تنبئني برسالة، تبسمت عندما رأيت اسم زوجي هيثم لأقرأ بها: "كل عام وأنتِ بخير يا حبيبتي، استعدي للمفاجأة".

وقعت طرقات باب الشقة في أذني لينتفض كياني، بالتأكيد هي المفاجأة، تُرى أية هدية أحضرها لي؟ بالتأكيد ستكون مفاجأة سارة، انتفضت من فراشي لأذهب إلى المفاجأة التي تنتظرني خلف باب الشقة، شعرت بألم في باطن ساقي وكأن حبلًا يتمدد بداخلي، تجاهلت هذا الشعور المتكرر لأسرع نحو الباب الذي فتحته لأجد رجلًا يبدو على وجهه الرتابة والتجهم، موظف حكومي، ويحمل ملفًا به أوراق يحتضنها بذراعه الأيمن ويحمل قلمًا بين أصابعه، قال لي: "أنتِ السيدة هبة؟".

- نعم.
- أرجوكِ وقّعي لي باستلام هذا.
- أستلم ماذا؟
- وقّعي أولًا وستعرفين.
- حسنًا.

وقّعت في الدفتر بالاستلام وأخذت منه الورقة وفتحتها لأتلقى المفاجأة التي أنتظرها ولكنها ليست كما توقعت، إنما أحرقت صدري وزادته توهجًا، وأجرت في جسدي رعدة، لقد طلّقني هيثم غيابيًا في يوم ميلادي! ماذا اقترفت من الإثم ليفعل بي ذلك في مثل هذا اليوم؟! ما الذي ارتكبته من الكبائر ليدمّرني يوم ذكرى مولدي؟! شعرت بثقل رجلي، شرعت في تحريكها ولكني لم أستطع كأنها شلت، أسندت ظهري إلى الجدار جوار الباب، لكني لم أستطع، فسقطت جالسة على الأرض وأصابعي ما زالت تحتضن تلك الورقة القاسية التي بدأت تمتص دموعي بعد أن ذرفت من عيني دون أن أدري.

نظرت إلى براح شقتنا الواسعة التي ضاقت على نفسي في لحظات، لقد اخترتها واسعة مع القليل من قطع الأثاث لأشعر بالراحة والانطلاق ولكن كل ذلك البراح اضمحل فجأة فلم أستطع التقاط أنفاسي، أيام حياتي معه

مرت جميعها أمامي في لحظات قليلة، منذ فرحة قلبي عند اعترافه بحبه لي، عندما تنصل من جميع الأعراف المجتمعية ووضعه المهني وكيلًا للنائب العام ليركع أمامي ويعلن رغبته في الزواج بي، لم يكن مضى على معرفتنا سوى أشهر قليلة جمعتنا فيها المحكمة التي كنت أتردد عليها بحكم عملي صحفية حوادث في جريدة (الواقع)، بمجرد إعلانه حبه لي انجرفت مشاعري تجاهه، وأحسست أنه الشخص الذي كنت أتمناه، اطمأن له أبي لشخصيته المتزنة وعقله المستنير وعائلته الراقية ومظهره المتحضر، وشعر أنه الرجل الذي يستطيع الاعتماد عليه في سفره مع أمي إلى السعودية للعمل هناك، فائتمنه عليّ هنا بعيدًا عنهما.

لم تمض أسابيع قليلة حتى تزوجنا بالفعل في عرس هائل حضره جميع معارفنا وأصدقائنا؛ ليشاركونا فرحتنا الكبرى، فقد صار لنا بيت واحد يجمعنا، حياة واحدة، كيان واحد، كنت أرى لمعة عينيه عندما كانت تنظر إليّ بفخر وامتنان، وكنت أبادله الشعور نفسه وربما أكثر، فكنت أشعر أنه حياتي بأسرها، بل بالفعل كان هو المحور الذي ترتكز عليه حياتي، تذكرت يوم أن أخبرنا الطبيب بأنني لا أستطيع الإنجاب لعيب وراثي لا علاج له، تذكرت حزني الشديد لأنني لن أتمكن من استنساخ نسخة أخرى منه، عرضت عليه الزواج بأخرى لأريح ضميري من هذا العذاب بعجزي عن منحه حياة

أخرى لاسمه، لكنه رفض بإصرار وطلب مني عدم الخوض في هذا الحديث مرة أخرى.

تذكرت خلافاتنا العادية التي مررنا بها، لم تكن بالأمر الجلل الذي يستوجب أن ننهي هذا الميثاق الغليظ الذي يجمعنا، ربما كان يتذمر كثيرًا من انفعالي وحساسيتي الشديدة بسبب تعبي غير المعروف، كل ما كنت أعرفه أنني أصبت باكتئاب شديد عندما علمت أنني عاقر كأرض بور يهجرها الجميع، شعوري بالعجز ولّد عندي أحاسيس أكثر صعوبة زادت من عجزي الذي سيطر على جميع عضلات جسمي وأتلف أعصابي، كنت أشعر بآلام مدمرة في جميع أنحاء جسدي، حول مفاصلي، عضلات يدي تتشنج وتخونني فتسقط مني الأشياء رغمًا عني، عضلات قدمي تتوقف فجأة فلا أستطيع التحرك، أطرافي ترتعش، مفاصلي تتفكك، طرقات عنيفة تنهال فوق رأسي، كل ذلك كان يشعرني بعجز يرهقني نفسيًا، لم يكن يدرك مدى ألمي لكنه كان يراني منفعلة دون مبرر.

نهرني مرات عديدة لأنه كان يظنني أتمارض وليس بي أي مرض، ذهبنا إلى أطباء في مختلف المجالات، ولكن كل الفحوصات كانت تظهر أنه ليس بي أية مشكلة عضوية، حتى أحالوني إلى الطبيب النفسي، وهو أيد رأيهم دون أن يدرك أن ما بي ألم عضويٌّ حقيقيٌ، ولكن انصعت لرأيه وغفرت له ذلك لأنه ليس أنا، فلا أحد يشعر بك سواك، برغم أنني كنت دائمًا أراه

جزءًا مني، بل كياني كله، ربما كان أهم مني لدي، لقد كان على رأس أولوياتي، ومحور حياتي، رغم طبيعة عملي التي تطلب مني وقتًا طويلًا وعصفًا ذهنيًا ونفسيًا.

ربما كان لا يعرف كم المشكلات التي أواجهها يوميًا مع البشر، بعدما رأيت حوادث غير إنسانية، وأياديَ غادرة تمتد إلى الأقارب قبل الغرباء، والعقول التي تفكر وتخطط لارتكاب جرائم بشعة، بدلًا من استغلال قدراتها في الإبداع والتقدم، هو أيضًا يرى تلك المشكلات بطبيعة عمله ولكنه لم يكن ينظر للأمور مثلي، فهو يراها بعين القاضي، وليس بمشاعره، يتعامل على أنها مجرد حادث عليه محاكمة الجاني، بعد ثبوت الأدلة، أما أنا فأضع نفسي مكان الضحية ومكان الجاني، أحسّ بألم المجني عليه، وتضيق عليّ نفسي حين أرى البشر يقتلون أنفسهم من أجل أمور زائلة، يفقدون إنسانيتهم من أجل الرضوخ لأنفسهم ومصالحهم الخاصة، أفكر كثيرًا كيف تجردوا من ضمائرهم في تلك اللحظة التي عزموا فيها على أن يدهسوا غيرهم أسفل أقدامهم ليرتقوا درجًا ليس من حقهم.

لا أحد يشعر بي، لا هو ولا غيره من زملائي ولا حتى هؤلاء الضحايا الذين أجلس معهم لرصد معاناتهم ومعرفة أبعادها، هم يقولون إنني واحة أمان بالنسبة لهم، أستمع إليهم جيدًا، أتفهمهم، أشعر بهم، يجدون فيَّ تلك القشة التي يتشبثون بها ليعودوا إلى الحياة، ولكني في الحقيقة أطلال متراكمة

داخل جدران، جميلة من خارجي، أبدو رائعة وداخلي حطام خلفته البراكين والزلازل والحروب. نعم تلك الحروب النفسية المدمرة التي نخوضها كل يوم في الشوارع والطرقات والأسواق والميادين وعلى الأرصفة والكباري وفي الدواوين والمؤسسات، تلك الحروب التي قتلت أنبل المشاعر داخلنا، وهددت عروش كرامتنا، ودنست طهارتنا، وانهزمنا تحت شعار البيروقراطية والروتين والأنانية وكل ما تحمله من مفاهيم وضيعة تستبيح الاستهانة بنفس بشرية، دمرتنا تلك الحرب التي وأدت الحب داخلنا، أطفأت نور قلوبنا، وجعلتنا نسير صمًا بكمًا عميًا.

عدت ثانية إلى حالي الآن وقد تهشّم قلبي إثر تلك المفاجأة الصادمة، لم يخيل إليَّ يومًا أن يغدر بي هيثم في أي يوم من الأيام، لقد كنا سعداء، وكانت العلاقة طيبة حتى اللحظة الأخيرة قبل منامي، ما الذي حدث في ليلة واحدة جعله يتعجل التخلص مني بتلك الطريقة المهينة؟ لماذا لم يواجهني ويخبرني بما حدث؟ أو يخبرني أنه قد سأم مني ويود الخلاص، لم أكن لأتشبث به أو أثقل عليه، كنت سأوافق على ذلك بكل هدوء، ونخرج بالمعروف كما دخلنا، ماذا عليّ أن أفعل الآن؟ لم أعد أستطيع التفكير في أي شيء؛ فقد كانت الصدمة أكبر من أن أتحملها، فإلى من أذهب الآن؟ عليّ أن أهاتفه أولًا لأعرف ماذا حدث، ولكن سيتفهم أن هذا يقلل من كرامتي، إذن سأحادث أبي وأخبره بما حدث. لا، علي أن أعتمد على نفسي تلك المرة، لا

يجب أن أخبرهم بذلك؛ فهم في غربة وكل ما يستطيعون فعله أن يزداد قلقهم عليّ حتى يستطيعوا العودة أو يطلبوا مني الذهاب إليهم، وأنا لا يجب أن أترك عملي في تلك الظروف، فربما تهوّن مصائب الناس مصيبتي.

حاولت القيام من مجلسي هذا البائس ولكني لم أستطع، تغلبت على عجزي واستندت على الأرض ونهضت، حركات قدمي بطيئة للغاية أشعر وكأنني جاوزت التسعين من عمري، جسدي ثقيل، ورأسي يكاد ينفجر، ويدي ترتعش وأنا أحاول التمسك بتلك الورقة الملعونة قبل أن أفقد سيطرتي عليها وتسقط على الأرض، بينما أستمر أنا في طريقي القصير الطويل للغاية في تلك اللحظات التي مرت عليّ كسنوات عجاف، التقطت الهاتف من السرير واتصلت برقم هيثم بعد أن جاهدت من أجل أن يتعرف الهاتف على بصمتي، فحتى هو لا يشعر بوجودي على الإطلاق، يبدو أنني أمرّ بأسوأ كابوس بحياتي.

الهاتف يرنّ ولكن لا أحد يرد، كررت الاتصال وأيضًا لم أتلق أي رد، اشتطت غضبًا، وأرسلت له رسالة "أرجوك رد عليّ".

بدأت أعصابي تتوتر نظرت إلى الساعة وجدتها العاشرة، مرت ساعة واحدة وأنا بتلك الحالة، لم أستطع أن أكمل يومي هكذا، ربما ستزهق روحي قبل انتهائه بهذه الطريقة، سأرتدي ملابسي وأذهب إليه المحكمة، ربما تلك أول مرة منذ زواجنا أذهب إليه عمله بصفتي زوجته؛ فقد كنت

أحب الفصل بين علاقة العمل والعلاقة الشخصية حتى إنّ أغلب الموجودين لم يعرفوا أنني زوجته من تمكني من الفصل والتعامل الرسمي بصفتي صحفية مع مصدر، تذكرت عملي، عليّ أن أعتذر عن الذهاب اليوم، ولكني لن أستطيع التحدث إلى أحد، أرسلت رسالة لمديري "أعتذر عن الحضور اليوم لظروف خاصة"، ونهضت أرتدي أول ملابس التقطتها يداي من "الدولاب" وذهبت بسيارتي إلى مقر عمله، صعدت إلى مكتبه، وسألت عنه أمين الشرطة الذي يقف بالخارج: "هيثم باشا موجود؟".

- لقد غادر منذ أقل من خمس دقائق.
- أشكرك.

أسرعت في النزول للحاق به في الجراج، وبالفعل لمحته بعيني واستقللت سيارتي لألحق به، سرت وراءه حتى وصل إلى مدخل بيت بالتجمع الخامس، ركنت سيارتي وضربت الجرس، فتح لي رجل يبدو أنه خادم سألته عن هيثم، لم أستكمل سؤالي حتى وقعت عيني عليه وجواره امرأة، لم أرها من قبل، دخلت دون انتظار لعرض الدخول، ونظرت إلى هيثم الذي اتشح وجهه بالتجهم، سألته: "لماذا فعلت بي هذا؟" ثم انتبهت لتلك السيدة فسألته: "من هذه المرأة؟" لكنه لم يجب عليّ، عِدت عليه السؤال: فهمني ماذا يحدث؟

أجابتني هي: أنا مروة القاضي بنت اللواء عمرو القاضي.. زوجته.

نظرت إليه كأنني لم أسمع تلك الكلمات، قلت له: من هي؟

رد عليا بنبرات حادة: نعم هي زوجتي وأم ابني القادم، لقد تأكدنا أمس من حملها، ألن تباركي لنا.

صدمتني تلك الكلمات التي لم أستطع استيعابها بعد، ولكني حاولت التغلب على هذا الإحساس الذي يهزّ كياني من الداخل، وفضّلت أن أحتفظ بما تبقى لي من كرامة وأنصرف؛ فقد اتضح كل شيء، لم يعد هناك ما يقوله ولن يغير في الأمر شيئًا؛ فقد دخل في حياة جديدة، وتزوج امرأة قادرة على تكوين أسرة له. الغريب في الأمر أنه تمكّن من خداعي طوال تلك الفترة الماضية، تذكرت أنني ما زلت أقف مكاني، تغلبت على تصلب جسدي ومضيت مسرعة إلى سيارتي دون أن أنطق حرفًا.

خضت الطريق عائدة وعيناي تذرفان بالدموع التي سالت مني بنهم وكأنها سيول في عز الشتاء تحاول إخراج ما قبع في نفسي من حزن وغضب ألّم بي وسيطر عليّ، ربما لم أكن لأتأثر كل هذا بالانفصال لو كان حدث بشكل تحضري دون خداعي أو الغدر بي، لكن ما هالني حقًا هو مفعول الصدمة غير المتوقعة؛ فحياتنا برغم ما تبدو عليها من هدوء واستقرار إلا إنني لم أكن سعيدة كما يجب، لكني كنت راضية وكنت أحبه فأتجاوز عن جميع سيئاته وكأنها عدم، ربما أكون قد أخطأت عندما أعطيته فوق قدره،

وكنت أضغط نفسي حتى أتقبل كل ما يفعله حتى إن كان أمرًا غير محتمل، فما أبرئ نفسي.

لا أعرف ماذا أفعل في الأيام المقبلة، سيضطرني لتغيير جميع خططي، فلا أعرف كيف أستمر في تلك الشقة التي كانت تجمعنا، ولا أعرف أهي حقي أم لا، ولا أعرف كيف أواجه المجتمع، أو حتى أواجه أهلي، فكأنني تعريت أمام الجميع، وأخشى من أن يراني أحد، لا يمكنني أن أصف هذا الشعور المحطّم الذي يدمر جميع المعاني الجميلة داخلي، ويميت مشاعري ويدهس كرامتي، لا أستطيع التفكير مطلقًا، عليّ الانتباه حاليًا إلى الطريق الذي فاجأني هو الآخر بأمر مذهل أجبرني على التوقف عنوة.

2

توقف الوقت للحظات وشلت الأفكار داخل رأسي عندما رأيت فتاة جميلة متوسطة القامة، ترتدي بذلة رسمية، شعرها طويل متموج يتطاير مع تسارع خطواتها وهي تمر على الطريق الذي كان يبدو هادئًا، لتدهسها سيارة فارهة تسير بسرعة فائقة ثم تفر هاربة وكأن شيئًا لم يحدث، لم أستطع فعل أي شيء بعد أن أوقفت سيارتي فجأة سوى التقاط صورة بهاتفي لإثبات الواقعة ومحاولة التقاط أرقامها، تعودت ذلك من طبيعة عملي بأن أحاول أخذ أي دليل لجلب الحقوق.

تابعت السير بسيارتي لأقترب من تلك الفتاة التي كانت تبعد عني بضعة أمتار، وجهها يشع منه البراءة بين قطرات الدماء السائلة من جبينها، كان المارة القليلون قد تجمعوا عندما رأوا هذا المشهد المؤسف من بعيد مثلي، فطلبت منهم مساعدتي في نقلها لأقرب مستشفى في المنطقة، أخذت حقيبتها معي وتحركت إلى أقرب مستشفى وأدخلتها غرفة الطوارئ، كان علي أن أتصل بأحد أقاربها قبل أن أسلّم الحقيبة لجهات التحقيق، أخذت هاتفها ولكنه كان ببصمة الإصبع أو بكلمة مرور، ولم تكن مخصصة أرقامًا للطوارئ، أخرجت المحفظة لأرى بطاقتها، إنها نورا طالبة جامعية، ولكن يبدو أنها كانت ذاهبة لزيارة أو عمل لأنها تسكن في حي السيدة زينب.

انتظرت في الاستراحة لأتذكر تفاصيل بداية هذا اليوم المشئوم الذي ولدتني أمي في مثله، نظرت إلى الساعة بالموبايل، إنها تقترب من الثانية ظهرًا، ولمحت ١٢ مكالمة لم يُرَد عليها من أمي وأبي، بالتأكيد قلقوا علي، ولكن ماذا أقول لهم؟ لا أعرف ماذا أفعل، ولكني اتصلت بهم.

- كيف حالك أمي؟
- أنا بخير حبيبتي، أين كنتِ؟ لقد قلقنا عليكِ وحادثنا هيثم لكنه لم يرد أيضًا.
- أعذريني أمي، انشغلت بعملي ونسيت الهاتف في الحقيبة فقط، تعلمين طبيعة قسم الحوادث تسلب مني وقتي.
- حسنًا حبيبتي. كل ما يهمني أن تكوني بخير.
- نعم أمي لا تقلقي، فأنا على ما يرام.

لم أستطع قولًا غير ذلك بعد أن سمعت نبرة القلق في صوتها لمجرد تأخري في الرد، فلا يمكن أن أزيد هذا الشعور، ولن أتحمل أن أشعر به.

- كل عام وأنتِ بخير وراحة وسعادة، عيد ميلاد سعيد، عليكِ أن تحتفلي بعد انتهاء العمل.
- وأنت بخير أمي، أدامك الله بحياتي.
- سأعطي الهاتف لأبيك.

- أبي العزيز.
- ماذا بك يا صغيرتي؟
- ماذا بي! لماذا هذا السؤال فأنا بخير.
- أنتِ ابنتي وجزء مني، ألا أشعر بكِ حتى من أنفاسك.
- أعلم أنه لا أحد يشعر بي سواكما، ولكني مجهدة من العمل، ووجدت بطريقي حادث سير تأثرت به قليلًا؛ فرغم اعتيادي تلك المشاهد لم يزل قلبي هشًا.
- اهتمي بنفسك يا صغيرتي، وهوني عليها، نحن دائمًا معكِ في أي لحظة تشعرين بحاجتك لنا سنكون عندك.
- يبارك الله لي فيكما.
- أستودعكِ الله.

أنهيت المكالمة دون أن أذكر أي شيء حدث مع هيثم، لم أستطع أن أوجع قلوبهما وهما بالغربة، فقد فعلا الكثير من أجلي طوال ٣٥ عامًا، عليّ أن أعتمد على نفسي وأتحمل مسئوليتي وحدي، وأن أمد يد العون لنفسي، لا أنتظر أحدًا ليقويني ويسندني، وإلا سأكون قد انتهيت بسبب شخص نذل لا يساوي شيئًا.

ذهبت لأطمئن على الفتاة، وجدت هاتفها يرن، إنها والدتها، رددت عليه.

- مساء الخير.

صوت لسيدة كبيرة في السن ترد: مساء النور يا بنور. لماذا تأخرتي يا بنيتي؟

- عذرًا. أنا لست نورًا.
- إذن من أنتِ؟ وأين هي؟
- أنا هبة، وابنتك قد أصيبت في حادث ونقلتها إلى المستشفى.
- مستشفى؟! ماذا حدث لابنتي أرجوكِ طمئنيني عليها، فهي مسكينة ليس لها سند، وليس لنا سوى الله.
- اطمئني، بإذن الله ستكون بخير، أنا بانتظار معرفة حالتها.

بصوت بكاء مكتوم: ماذا أفعل؟ أنا لا أستطيع التنقل بمفردي، ليس لي أية حيلة ولا ملجأ، ابنتي الوحيدة يا الله، انقذها برعايتك، وردها إليّ سالمة.

- لا تقلقي يا أمي، سأظل معها حتى أطمئن عليها، ولن أتركها إلا بعد أن اصطحبها إليكِ بنفسي.

لقد أشفقت كثيرًا عليها، يبدو أنها سيدة بسيطة لم تقدر على تحمل تلك الفاجعة، وليس بيدها حيلة، قررت أن أستمر معها بالمستشفى حتى أطمئن عليها وأوصلها بنفسي إلى والدتها.

وصل أحد رجال الأمن للتحقيق ولكنهم أخبروه أن حالة المصابة لا تسمح للاستجواب الآن، فتحدثت معه وأخبرته عن تفاصيل ما رأيت، وتذكرت الصورة التي التقطتها على هاتفي، فكبرتها قليلًا لأعرف الرقم بالتحديد، وللغرابة وجدته رقمًا مميزًا، يبدو أنه شخصية مهمة أو صاحب نفوذ أو أموال، غالبًا هو كذلك؛ لأن تلك السيارة لا تقل عن مليوني جنيه، أعطيته الرقم ومواصفات السيارة، ثم انصرف عني، نظرت إلى الصورة التي تليها فوجدتها مقطع فيديو صغير التقطُّه والسيارة تميل قليلًا ناحية اليمين لتفر مسرعة بعيدة عن الضحية، في الغالب أثرت عليّ ربكتي وصوّرت فيديو مدته ثوانٍ معدودة بدلًا من صورة ثم عدت والتقطت صورة بعد أن كانت السيارة قد أسرعت.

أحزنني ما رأيت وما توقعت، فلماذا أصبح الأغنياء لا ينتبهون لغيرهم من الفقراء؟ ولماذا يستغل صاحب أي نفوذ نفوذه من أجل الهيمنة على غيره وإشعارهم بالدونية؟ فسائق تلك السيارة الفخمة لم يلتفت مطلقًا إلى تلك الضحية الهامدة على الأرض، ولا فكّر بها ثانية واحدة، وإنما اتخذ قراره مسرعًا في الفرار، وهو يعلم أنه لا أحد سيلاحقه؛ لأنه يظن أنه فوق القانون وأيضًا فوق الإنسانية، ربما هذا نتيجة الخلل الذي نعيشه في المجتمع منذ سنوات؛ إذ اضمحلت المبادئ والقيم وتاهت وسط عادات جديدة تعتمد على الأنانية وفرض السلطات على الآخرين.

خرج الطبيب من الطوارئ، فسألته: أخبرني عن حالتها.

- لقد أجرينا لها جميع الفحوصات اللازمة وتبين أنها أصيبت بارتجاج في المخ وكسور في اليد اليمنى والساق وبعض الجروح المتفرقة.
- هل تلك الحالة تدعو إلى القلق؟
- لا داعي للقلق، سننقلها إلى العناية المركزة؛ لمتابعة وظائف الجسم حتى تستفيق، وبعد الاطمئنان على حالتها يمكنها الخروج، ولكن ستحتاج إلى راحة.

قررت العودة إلى الاستراحة؛ لتناول كوبٍ من النسكافيه حتى أستفيق، ربما أتناول أي شيء إن وجد، فأنا لم أتناول أي شيء منذ الصباح، كنت فرحة عند استيقاظي، فكم كنت ساذجة وأظن أن الرياح تأتي كما تشتهي السفن! ولكني وجدت الرياح قد تغرق تلك السفن، فقد عشت يومًا من أطول أيام حياتي، لم أذق مرارًا مثل ماذقته اليوم، ولم أتجرع آلامًا كهذي برغم ما أعانيه من ألم منذ سنوات.

انجذبت عيني إلى طبيبة طويلة، ممشوقة القوام، ذات شعر أملس بني، إنها صديقتي سارة، تبسم ثغري حين تذكرت أنهم كانوا يشبهونني بها من كثرة اختلاطنا، ولكني كنت أرى أجمل مني، ولا تزال جميلة كما هي، عدت أتأمل فيها، فقد أصبحت تمشي مهرولة مضطربة بعد أن كان المرح يملؤها

في أيام الدراسة، كانت صديقتي المقربة إليَّ طوال سنوات المدرسة، جال بذهني ذكريات طفولتنا المبهجة، قبل حمل الهموم والغوص في أعماق الحياة العابسة، شعرت بتلك الرجفة التي نشعر بها عندما نرى شخصًا يربطنا بالماضي وبذكرياتنا الطفولية البريئة، لا أعرف لماذا أفكّر في كل ذلك الآن، فربما بعدتنا الأيام قليلًا بين طبيعة عملنا وحياتنا الشخصية، ولكنا كنا نلتقي كلما سمح الأمر، ربما جاءت في وقتها المناسب؛ فأنا بحاجة إلى حضن يؤويني بعيدًا عن أعين البشر الذين قد ارتاب منهم، وأخشى أن أظهر أمامهم حزني، سأذهب إليها.

- حبيبتي المطحونة في العمل. يا لها من صدفة رائعة.
- معقول! هبة، لقد اشتقت لكِ كثيرًا. كيف عرفت أنني أعمل هنا؟
- أنا لم أعرف، لقد جئت بمرافقة مصابة في حادث سيارة.
- بالتأكيد تخص عملك.
- لا، لقد دهستها سيارة فارهة وفرَّ قائدها بلا ضمير؛ فلم يكن أمامي سوى أن أصطحبها إلى أقرب مستشفى، وأنتِ هل تأتين زيارة أم نقلت عملك؟
- نعم، نقلت محل عملي مؤخرًا إلى هنا مع محمود زوجي بعد أن نقلنا شقتنا الجديدة منذ شهور؛ فهي أقرب لنا.

- بالتوفيق يا عزيزتي، لن أعطلك عن عملك، فأنا مقيمة هنا حتى خروج الحالة، سأرافقها حتى تشفى؛ فيبدو أن والدتها سيدة بسيطة، ولا تتحمل التنقل والمجيء إلى هنا، سأنتظرك عندما تنتهين من مهامك اليوم.
- حسنًا، سأنهي عملي وأصطحبك إلى منزلنا نتناول الغداء سويًا ثم عودي إلى مريضتك.

تبسمتُ ابتسامة الراضية دون أن أدري ما يجب أن أقول أو ما يمكنني فعله، ولكني رددت عليها: سأنتظرك.

تركتها وعدت إلى الاستراحة، طلبت نسكافيه وجلست لأتناوله، وأنا أفكر في تلك الفتاة التي ترقد على سرير المستشفى بلا رفيق أو ونيس لا حيلة لها ولا قوة، بسبب بعض من ذوي السلطة والمال ممن يظنون أنهم يعيشون بمفردهم في هذا الكوكب وأن غيرهم كائنات غير آدمية، بلا أرواح، لا تحس ولا تشعر ولا تتألم، كالحجارة التي تتحمل الصدمات دون أية معاناة.

استثار فضولي أن أعرف صاحب تلك السيارة الفارهة والقلب الميت، تحدثت إلى أحد معارفي في المرور وأعطيته الرقم ليعرف لي صاحبها، فكما توقعت، علمت أنه ابن رجل أعمال مشهور، وربما يحاول التدخل من أجل

إغلاق المحضر قبل وصوله النيابة، سأنشر مقطع الفيديو الصغير على صفحتي الشخصية على فيسبوك؛ فقد أصبح حاليًا النافذة الرئيسة التي تجلب الرأي العام وتضمن حرية التعبير، وسأرسل خبرًا أيضًا إلى الصحيفة، ولكن لا أضمن هل ستتفق مع سياستهم التحريرية أم لا، وربما سيعرض عليها رجل الأعمال نفسه ويتدخل في محاولة لوقف النشر.

شاركت المقطع على صفحتي وكتبت عليه سيارة ابن رجل الأعمال الشهير تدهس طالبة جامعية وتفرّ هاربة، لم تمض دقائق حتى بدأت الصفحات الأخرى تداول الفيديو، وبدأت أعداد المشاهدين في التزايد، أرسلت الخبر لصحيفتي، وشعرت بدوارٍ أجبرني على الاسترخاء على المائدة التي أجلس عليها؛ حتى أستعيد توازني، انتبهت إلى صوت سارة تناديني: هيا بنا، نامي في منزلي أفضل.

نظرت إليها وقد ارتسمت البسمة على وجههي: هيا بنا.

حاولت القيام ولكني شعرت بثقل شديد في رجلي فجلست مرة أخرى، شعرت سارة بما حدث، فسألتني: ماذا بك؟

- اطمئني. أصبح أمرًا اعتياديًا بالنسبة لي.
- كيف أصبح كذلك؟ لا يجب أن تتغاضي على هذا الأمر.
- لقد دُرت على جميع الأطباء والتخصصات وأجريت جميع التحاليل وكل شيء على ما يرام.

- حاولي الاستناد عليّ؛ ليبدو الأمر بشكل طبيعي حتى نصل إلى سيارتي فقط ونتحدث عن كل شيء.
- يستحسن ذلك.

ذهبنا إلى منزلها الذي لم يكن بعيدًا على الإطلاق، وجدته واسعًا كبيتي ولكنه ممتلئ بالدف، لا أعرف هذا بسبب الأرضيات الخشبية أم بسبب مشاعر الحب بينهما، فقد تزوجا عن قصة حب حقيقة استمرت لسنوات وكانا على قدر عالي من التوافق الفكري، وربطهما طبيعة عملها التكاملية فهو متخصص في طب العظام وهي في العلاج الطبيعي.

قصصت عليها تفاصيل تعبي الذي عادة ما يزيد مع سوء حالتي النفسية أو عدم أخذ قسط كافٍ من النوم، وقصصت عليها ما حدث صباح اليوم، فور وصولنا إلى شقتها دخلت إلى السرير وشعرت بأوجاع في كل أجزاء جسدي، عرضت عليَّ إجراء جلسة تدليك لتخفيف تلك الآلام، وبالفعل تحسنت تدريجيًا مع لمسات أناملها الحانية حتى ذهبت في سبات عميق.

استيقظت على صوت سارة تناديني برفق وحنو شديد، فتحت عيني لأجدها بابتسامتها المعهودة تداعبني كي أنهض لتناول الغداء، لقد نمت ثلاث ساعات دون أن أشعر، قالت لي إن محمود قد أتى بالخارج وينتظرها

لتناول الغداء، فنهضت معها لأسلّم عليه وأغسل يدي لأستعد للغداء، جلست على الطاولة وأكلت كثيرًا كأنني لم أر الأكل منذ أيام، فقد كنت جائعة للغاية.

تناولنا الشاي عقب الانتهاء من الغداء، وجلسنا نتحدث سويًا، قالت سارة لزوجها: تخيل أن هبة تعاني من آلام في العضلات والمفاصل ولم تفكر أن تلجأ إليك؟

- لماذا لم تحدثيني فورًا، أم تنتظرين سارة لتكون واسطة.
- لا أبدًا، لكني لم أعرف ما الذي يؤلمني أو التخصص الملائم لحالتي؛ فقد ذهبت لجميع التخصصات دون جدوى، جميع الفحوصات تظهر أنني على ما يرام.
- أخبريني عن الأعراض التي تشعرين بها.
- يلاحقني صداع شديد، وآلام في جسدي كله، مجرد اقتراب أي شخص مني أو وضع يده عليَّ أشعر بألم، وأخشى أن أظهر ذلك لأحد حتى لا يفهم أنني أتخذ موقفًا شخصيًا منه، أصبحت حياتي كلها بين تحمل الألم وإظهار عكسه حتى لا أجرح أحدًا، رجلي تتشنج وتتيبس وأحيانًا ترفض أداء أبسط مهامها، أحيانًا تؤلمني مفاصل مختلفة، بجانب التنميل والتخدير الذي يلاحق أطرافي.

- أظنك بحاجة إلى طبيب روماتيزم؛ فهو الأقرب إلى تشخيص حالتك.
- لقد ذهبت وأجريت الفحوصات التي أثبتت سلامتي.
- أعرف طبيبًا جيدًا صديقًا لي كان يدرس في ألمانيا، وعاد إلى هنا منذ ما يقرب من عام، متخصص في مرض حديث نسبيًا يُدعى "فيبروميالجيا"، في الغالب سيكون لديك هذا المرض؛ لأنه لا يظهر في التحاليل والأشعة؛ لذلك يسمونه المرض الخفي؛ فجميع التحاليل تبين أن المريض في كامل صحته وسلامته البدنية، ولكن في الحقيقة هو يعاني آلامًا حقيقية عنيفة.
- لم أسمع عن هذا المرض من قبل، ولكني سأبحث عنه.
- سأعطي لكِ رقم هاتف الدكتور عمر فريد، هو متخصص في تلك الحالات التي تستعصي على بقية الأطباء ولا يتفهمها أحد، ويعالجها بأساليب حديثة، تحدثي إليه واذهبي إلى عيادته حتى يشخّص حالتك بشكل صحيح، وسأخبره أنك ستحدثينه.
- حسنًا سأحدثه، ولكن عليّ أن أعود إلى المستشفى الآن لأطمئن على تلك الفتاة المسكينة.

تدخلت سارة في الحوار: لا يمكن أن أتركك اليوم، ستبيتين هنا، هذا بيتك وهناك غرفتان فارغتان، اختاري ما تشائين.

- لا أريد أن أزعجكما، كما يجب أن أكون جوار تلك البنت المسكينة.
- لا تقلقي؛ أنا أتابع مع الطبيب في العناية المركزية، وهي لم تستفق بعد، وإن حدث فلن تستطيعي المكث معها ما دامت في العناية، ظلي معنا اليوم.. أرجوكِ فأنا لم أشبع من الحديث معك.
- اتفقنا. سأظل هنا.

قضينا بضع ساعات من أول الليل نتسامر ونتحاكى، ورويت لها جميع ما حدث مع هيثم، بالتأكيد كنت بحاجة ملحّة إلى الحديث مع شخص قريب مني أتيقن من شعوره تجاهي، وأنه لن يشمت بي أو يجرحني بأي فعل أو قول، وهي بالفعل كانت عند حسن ظني؛ فقد أشفقت عليّ، ولكنها أشعرتني أنني أستطيع أن أعيش بمفردي وأبدأ حياة جديدة أكثر سعادة، أخبرتني أنني كنت موهومة عندما ظننت أنني سعيدة معه، فكيف أكون سعيدة مع شخص وأشعر بالراحة معه وفي جسدي كل تلك الآلام النفسية، فأنا أشعر بالنقص لمجرد أنني ابتليت بشيء خارج عن إرادتي، فكان واجبًا عليه أن يقويني ويدعمني نفسيًا لأعرف أن هذا أمر طبيعي ليس لي يد به، وليس نقصًا، فمعنى شعوري هذا أنه لم يقم بدوره تجاهي،

هو خانني وخدعني وتخلَّى عني وخالف عهده مع أبي، ربما كنت سأسامحه لو استجمع ما لديه من شجاعة وأخبرني بما فعل أو ما سيفعل، ولكنه قرر أن يصبح كالفأر يفعل الفعلة ثم يسرع ليختبئ، لا أعرف كيف هو رجل قانون، وكيف يحكم بين الناس بالعدل، وهو لم يعدل مع أهل بيته، فهل فاقد الشيء يعطيه؟!

بعد انتهائنا من الحديث المطوّل كانت الساعة الحادية عشرة مساءً، ودعتني سارة إلى النوم؛ لنستطيع مواصلة أعمالنا غدًا، ولكني لم أستطع، ظللت مستلقاة على ظهري على السرير أنظر إلى نقطة واحدة في السقف، أفكر في جميع الأحداث التي مررت بها اليوم، تذكرت أن هذا اليوم الأسود هو ذكرى مولدي، وأنني كنت أرسم له أحلامًا تحطمت بمجرد أن دقَّ جرس الباب لأتسلم تلك الورقة الملعونة، استرجعت هذا المنظر الذي جمعه بزوجته الجديدة، وكيف ألهمني الله الصبر والثبات حتى لا أفقد اتزاني أمامهما.

لم تمض نصف ساعة على هذا الوضع حتى دقّ جرس الباب، لقد أوشكت على التشاؤم من هذا الصوت، يبدو أنه ضيفًا ثقيلًا يأتي إليهم في تلك الساعة المتأخرة من اليوم، عامة ليس لي شأن، فليتصرفا في بيتهما كما يشاءان، أما أنا سأواصل حيرتي.

3

عاد الهدوء ينتشر في الأجواء، وعادت السكينة تستقر في نفسي، بعد ما أصابها من اضطراب بفعل صوت الجرس الذي أعاد إلي ذهني أحداث أليمة، وفي الحقيقة هي لم تذهب قطعًا من ذاكرتي، فهو ليس حدثًا عارضًا من شخص لا يمت لي بصلة، ولكنه زوجي الذي ظننت أننا تجمعنا قصة حب وود ورحمة، فصدمني الواقع بأنه لم يعرف الرحمة، ولم يحفظ الود، ولم يحمل لي أي حب، سنوات ضاعت هباءً مع من لا يستحق، ومشاعر انجرفت نحو بحر أجوف لا يحفظها.

لم تمض سوى دقائق قليلة حتى سمعت صوت أنامل رقيقة تدقّ على باب الغرفة المصمد، وقع في أذني صوت هامس يقبل من بعيد ينادي في حنو، إنها سارة سمحت لها بالدخول، فدخلت بابتسامتها المعهودة وعينيها اللامعتين ووجها المشرق، تسألني: هل نمتِ؟

- لا لم يأت إليّ النوم.
- حسنًا، هيا اجلسي معنا أفضل من الجلوس وحدك هنا.
- استمتعا سويًا، سأحاول النوم.
- لا، تعالي معي نجلس سويًا أفضل ونشاهد فيلمًا مضحكًا يفصلنا عن هذا الهم.

خرجت معها وجدت النور منطفئًا حتى وطأت أقدامنا غرفة الاستقبال وجدت نورًا خافتًا منبعثًا من الشموع التي تذوب من أجل الآخرين، وتحرق نفسها من أجل إسعادنا، شعرت بارتياح لهذا الجو العاطفي والعطاء المتدفق، وفي منتصف المنضدة التي تتزين بالورود والقلوب الحمراء، توضع كعكة عيد الميلاد وحولها كؤوس من المشروبات الغازية، وتحيط بنا نغمات الموسيقى الرنانة، التي تقتحم فؤادي لتصيبه بالفرح، وتهز وجداني ليتراقص معنا فرحًا بما فعلاه من أجلي، فقد فكرا في إسعادي بأي شكل، وكأنهم يعوّضانني عن ساعات عجاف مضت في هذا اليوم الأسود.

مرت ساعات بصحبتهما نغني ونتراقص ونحتفل ونخرج الطاقة السلبية، لتعم داخلنا البهجة والسعادة والرضا، ثم دخلت لأخلد إلى النوم بعد أن اتفقنا أن أظل معهما حتى نطمئن على الفتاة المريضة، وأعود معها. مرت ثلاثة أيام وأنا بين المستشفى وبيت سارة، حتى استيقظت على اتصال هاتفي من مدير التحرير.

- صباح الخير.
- صباح الخير يا هبة، أين أنتِ؟
- أنا برفقة الضحية التي أتابع قضيتها كما أخبرتكم وأعدّ تحقيقًا صحفيًا كاملًا عن قضية حوادث الطرق.

- لا يكفي ذلك، عليكِ أن تحضري وإلا سنخصم لك تلك الأيام.
- ولكني أرسل كل يوم الأخبار الاعتيادية فضلًا عن أهمية وجودي؛ لأنها حالة إنسانية ستصلح لموضوع "فيتشر".
- هذا آخر كلام لدينا، سننتظرك اليوم.
- حسنًا، سلام.

أنا حقًا لم أذهب إلى العمل في تلك الأيام ولكني أرسل الأخبار بشكل يومي وأعدّ لموضوع تحقيق عن الحوادث الطرق، وتلك هي مهمتنا الحقيقية، وليس مجرد الحضور والانصراف، فقد ألتزم بالحضور ولا أقدم أية مادة إخبارية، وقد أسرع في إرسال الخبر دون تأنٍ أو تحري الدقة، لا أعرف من فعل ذلك بمهنتنا المقدسة ليحيلها إلى وظيفة روتينية تعتمد على الحضور وليس الإنتاج، وعلى الكم وليس الكيف، هناك من يتعمد عرقلة طبيعة عملنا الأساسية، ويحيلنا إلى مجرد أدوات، ويدخل بالمهنة غير المتخصصين أو من لا يمتلكون أبسط مهارات الصحافة من أجل تحويل أهدافها إلى مسار آخر، وكأنهم يشنون حربًا باردة للتخلص من قيم تلك المهنة السامية، ولكن لا يجب أن نستسلم لهذا حتى إن اضطررنا فترة إلى المواءمة، ولكن يومًا ما سنعود إلى دورنا الحقيقي، ونعاود السيطرة على زمام مهنتنا.

انتقلت إلى المستشفى، اقتربت من غرفة العناية، لأسمع دقات قلبي المتسارعة، لم تكن تلك المرة الأولى بحكم طبيعة عملي، ولكني ما زلت أشعر بالرهبة كلما اقتربت منها، فهنا أرواح تتألم وأجساد توشك على الرحيل، أكتشف أنها قد فاقت وانتقلت إلى غرفة عادية تمهيدًا للخروج، رفرف قلبي من الفرحة لاستفاقتها وحدثت والدتها لأطمئنها، وذهبت إلى نورا لأجد ضابط المباحث ينهي المحضر.

- أهلًا بالسيدة هبة.
- أهلًا بك.
- لقد أشعلتِ علينا مواقع التواصل الاجتماعي والرأي العام، وتزايدت الضغوط علينا بسبب تلك القضية.
- أظن أنكم في كل الأحوال كنتم ستستكملون عملكم سريعًا، دون النظر إلى هوية الجاني أو حجم ثروة أبيه.
- بالطبع، نحن نؤدي واجبنا على أكمل وجه، ولكن شباب مواقع التواصل الاجتماعي يريدون التحكم في كل شيء دون أي دراية، ولا يعلمون كم نبذل من الجهد لخدمة هذا الشعب.

أعلم أن كيان الشرطة اهتزّ بعد ثورة 2011، وأصبح الرأي العام يتربص بهم، وسقطت هيبتهم، وقد بذلوا الكثير من أجل استعادتها، وتحسين تلك الصورة، ولكن لم يستردوا ثقة الشعب، وربما لديهم حق لأن بعضهم يعودون

للانتهاكات تدريجيًا، ولكني قررت تخفيف حدة الحوار، فقلت له: بالطبع ندرك حجم مجهوداتكم ونقدرها، ولكن نتمنى استمرارها، وربما نشرت الفيديو ذلك سندًا لكم في حالة زعم أحدهم الضغط عليكم لمخالفة الحق، فنحن أيضًا في خدمتكم.

- ونحن نسعى إلى ذلك.
- وهل تمكنتم من القبض على المتهم؟
- نعم منذ لحظات، وسيتحول للنيابة، لا تقلقي، ما تزال البلد في قبضة العدالة.
- أحييكم على مهامكم.
- سعيد بالتعرف عليك.

تبادلنا أرقام هواتفنا، فقد اعتدت ذلك بحكم عملي في الصحافة؛ فربما أحتاج إليه ذات يوم، انتهينا من جميع إجراءات الخروج واصطحبتها إلى سيارتي لأوصلها إلى والدتها كما وعدتها.

سألتني نورا عما حدث وقصصت عليها، ثم تركتها تحدثني عن طبيعة عملها، قالت: أنا أعمل مرافقة لإحدى كبيرات السن في التجمع الخامس؛ حتى أنفق على دراستي وأشارك في مستلزمات المنزل.

- ماذا تدرسين؟

- أدرس في كلية الخدمة الاجتماعية.
- وأين والدك؟
- أعانه الله على مرضه، أصيب في حادث طريق تسبب في عجز بساقه الأيمن فجعله لا يستطيع العمل لساعات طويلة كما في الماضي، وكان عليَّ أن أرد بعض الجميل وأساعدهم في مسئولية المنزل بجانب دخل والدي البسيط.
- حادث طريق؟
- نعم، تعرفين عندما رأيت السيارة أمام عيني رأيت مستقبلي في حياة أبي، يبدو أننا كُتب علينا الإعاقة بسبب همجية أصحاب السيارات، تذكرت تلك الأيام المريرة التي مررنا بها أثناء الحادث وكيف كنت أرى الحزن والمستقبل الغامض في عين أمي.
- كم كنت تبلغين من العمر عندما أصيب بالحادث؟
- كنت في الثانوية العامة، في عزّ أحلامي بالمستقبل، فجأة تكسّرت جميع أحلامي، ورأيت مستقبلي يتحطم أمام عيني، كان عليّ إما أن أستسلم أو أستكمل دراستي وأحاول مساعدة أبي بعد أن تيقنا أنه لن يستطيع المشي على قدمه بصورة طبيعية.
- وهل أخذ تعويضًا أو عرفتم صاحب السيارة؟

- لا، لم يسعنا الوقت لالتقاط أرقامها، كل ما حدث أن السيارة فرت هاربة كما حدث معي لولا أوقعك الله في طريقي.

كانت كلماتها تمس قلبي دون أية حواجز، شعرت بكل ما أحسّت به وتحس به الآن، حتى لو لم تقله بشكله دقيق، وربما هذا صبّرني على ما حدث لي؛ فأنا ذقت هذا الغدر مؤخرًا، في حين أن أبي وأمي موجودان في أية لحظة، أستطيع أن أرتمي في أحضانهما وأرمي جميع أحمالي عليهما، فأحيانًا يرسل إلينا الله إشارات لنعلم كم من النعم نتملك ولا نشعر.

وصلنا إلى حي السيدة زينب، البشر يتزاحمون وسط الطرقات المتكدّسة، يسيرون على عجل بين العابس والراضي والمتفائل، تجمعهم رائحة المكان العطرة، أدخلتني نورا في حارات داخل حارات كانت السيارة تدخل بها بالكاد، حتى وصلنا إلى بيتها، وجدته قديمًا متهالكًا عفا عليه الزمن كما عفا على والديها، دخلت لأسلّم على والدتها فوجدتها سيدة كبيرة شبه متقاعدة يبدو عليها جميع الأمراض المزمنة، طمأنتها على بنتها وأخبرتها عن كلام الطبيب بأن عليها الراحة أسبوعين وأعطيتهم حقيبة الدواء الخاص بها، واخبرتهم أنني سأزورهم مرة أخرى ولن يرتاح بالي حتى تحصل على حقها.

خرجت من بيتها بعد أن نلت عدة دعوات من والدتها ليهدأ بالي وينتعش صدري، اتجهت إلى شارع عبد الخالق ثروت لأعود إلى بيتي حتى أستبدل ملابسي وأذهب إلى العمل حتى أؤدي دوري المنوط في البصمة التي أشعر أنه لا يجب أن يكون ذلك أداة تقييم للصحفيين، ولا يمكن أن تكون مقياسًا لأي عمل سوى لمن يتطلب عملهم الحضور في المكان، ولكن طبيعة عملنا طليقة قد توقظك من منامك من أجل العمل فكيف يحكموننا بوقت في حين أن عملنا غير مقيد بوقت، ولكن عليّ الالتزام بقواعد العمل.

استبدلت ملابسي، ارتديت بنطالًا أسود وبلوزة حمراء ووضعت طلاء شفاة أحمر، حتى يخبئ الإجهاد المبعثر على وجهي، لأظل محتفظة برونقي وأناقتي التي ينعتونني بها، ومشطت شعري ثم ربطته حتى لا يعيقني عن العمل، وتوجهت إلى الصحيفة وقد عزمت النية على أن أبصم فقط؛ فلدي عدة مهام يجب القيام بها، لا بد أن أذهب للجهاز المركزي للمحاسبات لأجمع معلومات عن حوادث الطرق، لأبني عليها تحقيقي المقبل.

تحملت ازدحام الطريق وتعطل الحركة المرورية في الإشارات حتى وصلت إلى مبنى الصحيفة الضخم القاطن بشارع البطل أحمد عبد العزيز في المهندسين، دخلت من البوابة الزجاج الإلكترونية المهيمنة على المدخل، وألقيت التحية على رجال الأمن الواقفين يواجهون الشمس في عبوس، وتوجهت إلى اليسار مسرعة نحو جهاز بصمة العين الذي أقروه علينا

ليضمنوا الحضور الإلزامي دون النظر إلى العائد، التقيت بزميلتي رنا، وعلى الرغم من عدم ارتياحي لها، انحنيت قليلًا لأسلم عليها لفارق الطول بيننا، فهي تعد أقصر صحفية معنا، قالت لي: ما هذا التألق؟ بالطبع ليس لديك أي ضغوطات أو أعباء أو أولاد، حياتك ميسرة كنت أتمنى أن أكون مثلك.

تبسمت لها تلك الابتسامة التي يسمونها بالصفراء؛ فهي رأتني بلا أية مشكلات لمجرد حكم ظاهري، دون أن تعلم ما الذي مررت به الأيام القليلة الماضية، رددت عليها: نحمد الله على كل حال، ولكن لا أتمنى لكِ أن تكوني في ظروفي.

- يبدو أنك تخافين من الحسد، فأنتِ دائمًا متألقة ولا يهمك أي شيء، فحتى الأموال لا تعملين من أجلها مثلنا؛ فمعك زوج لن يمنع عنك شيئًا، فكيف تشعرين بما نشعر به ونحن معرضون لخطر الفصل؟!

بعد تلك الكلمات لم يعد هناك ما يستدعي الرد، فمهما قلت لن يجدي شيئًا، ولكن يبدو أنه لا أحد يشعر بي؛ فأنا امرأة من زجاج لامع صلب يرونه مثاليًا براقًا عاكسًا لجمال الطبيعة، لا يدرون مطلقًا أنه مهشم من الداخل تحول إلى ذرات صغيرة الحجم متراكمة في إناء واحد هو جسدي، لم أعد أحتمل هذا الشعور، شعرت بثقل رجلي ونغزات حادة في قلبي،

تذكرت حديث محمود عن صديقه المتخصص في مرض غامض، فهاتفته على الفور.

- مساء الخير
- دكتور عمر مساء النور، معك هبة المرشدي من طرف الدكتور محمود لطفي.
- أهلًا بك، لقد حدثني عنكِ منذ أيام وأنتظر مكالمتك.
- أشكرك، أتمنى تحديد موعد يمكنني الحضور فيه إلى عيادتك.
- هل يناسبك اليوم الساعة الخامسة عصرًا؟
- يناسبني بالطبع.
- حسنًا، سأنتظرك.

أغلقت الهاتف، واعتزمت إنجاز التحقيق الذي قررت إعداده، شرعت في جمع البيانات والمعلومات اللازمة، ذهبت إلى الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء للحصول على النشرة السنوية لحوادث الطرق في العام الماضي 2018، لأكتشف أنها شهدت 8 آلاف و480 حادثة نتج عنها 3 آلاف و87 متوفيًا، و11 ألفًا و803 مصابين، و11 ألفًا و803 سيارات تالفة، وللأسف كان السبب الرئيس للحوادث هو العنصر البشري بنسبة 76.8 في المئة، يليه عيوب في السيارة، ثم العنصر البيئي.

تحدثت مع بعض المتخصصين فأكدوا ضرورة إقرار تشريعات صارمة للحد من أخطاء العنصر البشري من السرعة، واستهلاك الخمور مع القيادة، وعدم استخدام حزام الأمان، مع ضرورة تصميم الطرق الذكية وحملات التوعية لإنقاذ أرواح البشر، وتحدثت مع علماء النفس ليوضحوا أهمية إجراء اختبارات نفسية قبل منح الرخصة.

عدت إلى الصحيفة لكتابة التحقيق قبل موعد الطبيب، وبالفعل بدأت في سرد القصص الإنسانية التي جمعتها مع قصة أسرة نورا، ثم معدل الجريمة وأسبابها ثم آراء المتخصصين في مختلف المجالات المتعلقة وطرق الخلاص منها، ثم أرسلته للمراجعة وذهبت إلى موعدي.

عيادته جواري في شارع عبد الخالق ثورت بوسط البلد تلك المنطقة التي أعشق شوارعها الهادئة، وعقاراتها ذات الطراز الأوروبي، ومحالها الجاذبة، وأجواءها المنعشة للصدور، كنت دائمًا ألقبها بأنها قلب القاهرة، شغرها مؤخرًا بعض الباعة الجائلين والزحام بعض الوقت، ولكن لا تزال تحمل عبق التاريخ، دخلت العيادة ذات الطلاء الأبيض الناصع، لوني المفضل، أنعش صدري، وأهدأ ذهني قليلًا، دخلت إلى ساحة الانتظار الواسعة التي يتخللها مقاعد مكساة بالجلد الأسود، في نهايتها مساعدة الطبيب تردي اللون الأبيض، اقتربت منها فوجدتها تقابلني بابتسامة

مشرقة، وأخذت بياناتي، ثم طلبت مني الانتظار قليلًا حتى ينهي الكشف الحالي.

ربع ساعة مضت وأنا أضع سماعة الهاتف في أذني لأستمع إلى أغنية أم كلثوم الشهيرة "الأطلال" لتجتذبني كلماتها "يا حبيبي كل شيء بقضاء ما بأيدينا خلقنا تعساء"، تنهدت وقلبي يحمد الله، فلست التعيسة الوحيدة في هذا الكون، نادتني المساعدة تدعوني إلى حجرة الكشف، لم تختلف كثيرًا في تصميمها عن قاعة الانتظار، تفوح منها عطرًا جذابًا تتبعت مصدره لأرى الدكتور عمر، وجدته رجلًا وسيمًا بشوشًا، يظهر عليه الوقار والهيبة واللطف، طويل القامة، عريض المنكبين، ذا أعين ثاقبة عميقة جذّابة، اختطفتني إلى عالمها.

- يا ويحي! كيف أنجذب إلى شخص لا أعرف عنه سوى عينيه؟
- وجدت بها عالمًا مس وجداني واختطف روحي لأبحث فيه عن نفسي التائهة، عالم يشبه أحلامي.
- تمهلي أيتها النفس البائسة، ألم تستتيبي من هؤلاء الرجال؟!
- ولكنه ليس كهؤلاء الذين ينتحلون صفة الرجال؛ فعينيه تقول شيئًا آخر.
- دعك من تلك الخرافات، انتبهي لنفسك ومرضك فحسب.
- يالك من نفس شريرة.

انتبهت لصوته العميق ذي النبرة المنخفضة الوقورة يقول: ماذا تودين أن تشربي عزيزتي؟

- أي شيء، ما المتاح؟
- كل ما تريدين ستجديه هنا.
- عصير مانجو.

طلب العصير من العامل بأسلوب مهذب وباحترام شديد، واستكملنا الحديث.

- عرفت أنك تعملين صحافية.
- نعم.
- مهنة شاقة ولكن لها مزايا أيضًا.
- لا أراها شاقة مطلقًا، ربما من يعمل بأية مهنة لا يحبها أو لديه مهاراتها سيشعر أنها متعبة، ولكني أجد نفسي بها، فهي حلمي الوحيد الذي وصلت إليه، وما زلت أعشقها، وأغار عليها من أي هجوم أو تعسف أو عدوان مادي أو معنوي، وأتمنى أن أصلح أية شوائب حلت بها.
- جميل أن تعملي بشيء تحبينه، القليل هكذا في هذا الزمن.
- أنا من أنصار العمل بما تحب حتى تبدع فيه؛ فالحب هو القوة

الوحيدة التي تزيل جميع المعوقات، وتجعلك قادرًا على مواجهة أي تحدٍ وتحمل أية صعوبات.

تبسم عمر قبل أن يقول: يبدو أنكِ فيلسوفة، مثلك لا يجب أن يتألموا.

- أشكرك، ولكن الألم لا يعرف طبائع البشر.
- أخبريني عما تشعرين.
- أشعر بآلام تغزو جميع أنحاء جسدي، حرب تشتعل داخلي فجأة دون سبب وتهدأ أيضًا دون سبب، عادة تكون آلامًا متفاوتة في العضلات والأوتار والأربطة حول المفاصل، وقد تمتد إلى سائر أعضائي، أحيانًا تخونني عضلاتي وترفض تنفيذ أوامري.
- هل تشعرين بمشكلات أخرى غير هذا الألم؟
- نعم، أشعر بالتعب والإرهاق طيلة الوقت، حتى النوم لا يريحني، عادة أصاب بالأرق والقلق، وعندما أستيقظ أشعر بالإرهاق كأنني لم أنم.
- هل تعانين من الصداع؟
- نعم، صداع شديد، أحيانًا نصفي وأحيانا ممتد إلى أسفل رقبتي، ولا أستطيع تحمل أي صوت أو ضوء.
- ما أخبار الضغط؟
- غير منتظم، تارة يرتفع وتارة ينخفض.

- سأكتب لك عدة تحاليل لـ...
- لقد أجريت جميع التحاليل التي يمكن أن تطلبها.

أعطيتها له ليفحصها، وقال لي: يبدو أنك جاهزة بكل ما يمكن أن أطلبه.

- لقد ذهبت إلى أطباء بجميع التخصصات، وجميعهم أجمعوا على أن ليس بي شيء بحسب التحاليل، ولكني لست موهومة كما يدعون، أنا حقًا أتألم كل يوم.
- منذ متى تعانين تلك الأعراض؟
- نحو عامين.
- أيمكنني الكشف عليك؟ أستأذنك في الاستلقاء على السرير.
- حسنًا.

ضغط الدكتور بأصابعه على أماكن محددة جميعها كانت تؤلمني بشدة، وانتهى من الكشف.

- أنتِ بالفعل مصابة بـ"فيبروميالجيا".
- ولكن كيف عرفت ذلك وجميع التحاليل سليمة؟
- هذا جزء من التشخيص، فهذا المرض الغامض يشخّص باستبعاد الأمراض المشابهة؛ لذا نطلب فحص تعداد الدم الكامل، ومعدل

سرعة ترسب الدم، واختبار بيبتيد السيترولين غير الحلقي، وعامل الروماتويد، واختبارات وظائف الغدة الدرقية، لاستبعادها، ثم نفحص 18 نقطة محددة في جسم الشخص لمعرفة عدد النقاط المؤلمة بها عند الضغط عليها بشدة، ثم نشخص باستمرار هذا الألم لمدة لا تقل عن ثلاثة أشهر.

- وما علاج هذا المرض؟
- للأسف، هو مرض مزمن وليس له علاج نهائي، ولكن هناك أدوية نكتبها للمريض لتساعده على التعايش مع المرض، سأكتبها لكِ على أن تستمري عليها لمدة أسبوعين ثم تعيدين عليّ الزيارة.
- حسنًا، أشكرك.
- فرصة سعيدة، وسأنتظرك في الموعد، وإن حدث أي شيء حادثيني فورًا.

غادرت العيادة، واشتريت الدواء، وعدت إلى منزلي وأنا ما زلت أفكر بتلك العيون التي اجتذبتني عنوة، ربما لم ينشغل ذهني بالمرض بقدر ما انشغلت بعينيه، عجيب أمري هذا، يفترض أنني ما زلت تحت تأثير الصدمة ولا يجب أن أنجذب إلى أي رجل على الإطلاق، ولكن به سحرًا خاصًا، يكفي أنه الوحيد الذي شعر بألمي وتمكّن من تشخيص حالتي، بالتأكيد هو

مختلف ومميز؛ لأنه اختار تخصصًا نادرًا وغامضًا، ولم يستسهل في التشخيص بأنه مرض نفسي، كبقية الأطباء.

مضت الأيام بين العمل والذهاب إلى الاطمئنان على نورا، والحديث إلى أبويَّ، وتناول الدواء الذي يهدّ جسدي ويحفزني على النوم، حتى اقتربنا من موعد زيارة الطبيب، شعرت براحة لأنني سأتخلص من الدواء ربما تحسنت بعض الشيء ولكن لم تزل جميع الآلام، بالتأكيد كنت متوقعة، ولكن ما يؤرقني هو شعوري الغريب تجاه عمر، فكل ليلة بعد تناول الدواء المثبط أصل إلى مرحلة اللاوعي بين النوم واللا نوم أشتهي رؤياه بلا سبب وبلا منطق ليمنعني من النوم، ويبقى الوضع كما هو عليه، فلا أنام ولا أصحو.

4

لم أكن متعمقة في منامي الذي لم يطل أكثر من ساعتين عندما أزعجني صوت رنات هاتفي الساعة السادسة صباحًا، لم تكن الرنات عالية أو مثيرة للإزعاج في ذاتها فقد اخترت نغمات هادئة، وإنما توقيتها كان مريبًا وسط السكون الذي يعم الأجواء بعد شروق الشمس، وازدادت ريبتي عندما وجدت المتصل مدير التحرير، فما الذي يجعله يحدثني في هذا التوقيت؟ بالتأكيد هناك أمر جلل.

- صباح الخير.
- صباح النور يا هبة، توجهي إلى كوبري قصر النيل؛ يبدو أن هناك حادثًا ضخمًا يوقف الشوارع المحيطة، ستجدين تجمعًا وسيارات شرطة وإسعاف، اعرفي ماذا يحدث وأخبريني.
- حالًا.

ارتديت ملابسي على عجلٍ ونزلت سريعًا، واستقللت تاكسي، لم أصطحب سيارتي لأنني اعتدت في عملي عادة على التحرك وحدي دون قيود، وهناك حادث وطريق مغلق، ستكون حركتي أخف بذلك، فور دخولنا ميدان التحرير لاحظت زحامًا مروريًا في الشوارع المؤدية لكوبري

قصر النيل، نزلت لأترجل على قدماي تلك المسافة، حتى وصلت إلى الكوبري لأرى تكدسات بشرية محيطة بأفراد شرطة، وقوات إنقاذ بحرية، رأيت غيومًا تخيّم على وجوه الواقفين العابسة، وحيرة ترتعش في أعينهم، وغضبًا يسيطر عليهم جميعًا من شباب وشيوخ يضربون كفًا على كفٍ، تخرج من أفواههم "إنا لله وإنا إليه راجعون" بصوت عالٍ يخترق السماء التي تبدو صافية، شعرت بلسعة برد أجرت رعدة في جسدي، وانتابتني القشعريرة.

سألت أحد الواقفين عما حدث، قال لي: لقد وجدوا رجلًا يلقي أطفالًا في النيل، وتمكنوا من الإمساك به وإبلاغ الشرطة التي تحاول إنقاذهم.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، من هؤلاء الأطفال؟
- لا أحد يعرف، ربما من أطفال الشوارع أو أطفال اختطفهم.

شعرت أن قلبي ينتفض بشدة وكأنه يريد الفرار من بين أضلعي، لا أعرف لماذا اهتز وجداني بتلك الطريقة برغم اعتيادي مثل تلك الحوادث كل يوم منذ أربعة عشر عامًا أعمل في هذا المجال، ربما لأنني شممت تلك المرة عن قرب رائحة الموت الممتزجة بالخوف والفزع والقهر، فهناك صوت داخلي يخبرني أنه ليس حادث قتل عادي، ولكني في كل الأحوال لا أستطيع

استيعاب كيف لأي إنسان مهما بلغت قسوته أن يلقي أطفالًا في النيل بلا رحمة؟

- وهل تمكنوا من ضبط الرجل؟
- نعم، ألقوا القبض عليه بعد ضبطه من قبل المارة، ولكن الوقت لم يسعفهم لإنقاذ الأطفال.

اقتربت من ضابط الشرطة وعرفته بنفسي، واستأذنت منه للتصوير، ثم سألته: هل تمكنتم من ضبط الجاني؟

- نعم، إنه في سيارة الترحيلات.
- أيمكنني التحدث إليه.
- لا بالطبع، إنه في حالة هياج الآن، يقول إنهم أولاده وهو حر بهم.
- أولاده! كيف أمات قلبه لتلك الدرجة التي يلقي بها جزءًا منه، صغاره الذين لا حول لهم ولا قوة.
- لقد أصبحت تلك الجرائم اعتيادية، فنحن نواجه كل يوم جرائم أسرية، لأب يقتل أبنائه، وابن يقتل أبيه، ورجل يذبح زوجته، ولكن تلك آثارت الذعر؛ لأنها مست الطريق العام.
- حقًا لاحظت انتشار مثل تلك الجرائم منذ فترة، بالتأكيد هناك سبب قوي لذلك.

انتظرت معهم حتى انتقلوا إلى قسم قصر النيل وذهبت معهم، رأيت الجاني شابًا في منتصف الثلاثينيات تخططت ملامح وجهه بعلامات الهم والأعباء، يتمتم بكلمات غير مفهومة، كمجنون هرب من مستشفى الأمراض العقلية فلا يعلم لماذا يلاحقونه. انتظرت التحقيقات؛ لمعرفة ملابسات الواقعة.

شاب لم ترحمه ويلات القدر من قسوة الحياة الموجعة، تخرج في كلية التجارة، لم يجد وظيفة تناسب تخصصه فعمل في أحد المصانع الخاصة، زوّجته والدته قبل موتها لابنة خالته التي رضيت بظروفه الاقتصادية الصعبة وعاشت معه في بيت أبيه بعابدين وأنجب طفلين، ولكن بعد ارتفاع الأسعار ساءت ظروفه المالية وأصبح راتبه لا يكفي لتلبية احتياجات الحياة الأساسية، حتى مرضت زوجته وفقدت الوعي، لفّ بها على جميع المستشفيات أيامًا ولياليَ؛ فهو ليس له أقارب ليساندوه، ولم يجد سرير عناية، كان لا يعرف أين يذهب؛ فهو لا يمتلك أموالًا ليدخلها مستشفى خاصًا، ولا يجد مكانًا في مستشفى التأمين أو مستشفى حكومي، وظل يلفّ بها بين المستشفيات حتى توفاها الله بمجرد دخولها قصر العيني، اصطحب طفليه وظل يسير لا يعلم إلى أين، كل ما يشغله ماذا يفعل، وأين سيتركهم أثناء عمله، وكيف يتركهم في تلك الحياة المريرة، حتى تلقى اتصالًا هاتفيًا من المصنع يخبرونه بأنه قد فُصل، رأى مستقبل أولاده الغامض أمام عينيه، لم

يجد في ذهنه سوى أن يخلّص نفسه وأولاده من تلك الحياة، نظر أمامه فوجد كوبري قصر النيل، فرآه الملجأ، قتل أولاده قبل أن تقتلهم الحياة آلاف المرات وهم على متنها، ظنّ بذلك أنه يحميهم من تقلبات الحياة وغدرها، وأراد أن يلحق بهم، ولكن إرادة الله لم تشأ، سيظل هو يتعذب بمفرده.

انتهيت من كتابة الموضوعات الصحفية الخاصة بتغطية الحادث ونظرت إلى الساعة وجدتها تقترب من الرابعة موعدي مع الدكتور عمر، تبسمت لمجرد تذكري الموعد برغم كم النيران التي تحترق داخل صدري بسبب ما سمعت وما رأيت، فلا أبرئ هذا الرجل ولكنه أيضًا مجني عليه، فلا يمكن أن تعاقب مجرمًا وحده على جريمة دفعْتَه أنت إليها دون رحمة، إنسان مكلوم مهما كان العقاب فلن يؤثر به؛ لأنه قبل أن يلقي أبناءه كان قد مات، فهل يفيد الجلد في شخص ميت، في رأيي يجب عقاب المقصرين الذي دفعوا به إلى تلك الحالة، كل من أهمل في تطوير المستشفيات، وتوفير الأجهزة والأسرّة الكافية، وكل من أهمل في حقوق العمالة في القطاع الخاص وجعلهم يعملون بالسخرة لدى صاحب العمل بلا أدنى حقوق، ووضع أرواحهم تحت أيديهم يعبثون بها كما يشاءون، إذا فعلنا ذلك سنصلح الحال وتقل الجريمة، ولكننا نرى بشكل سطحي، وهكذا لا يمكن أن تقل الجريمة.

ما الذي يمكن أن يدفع إنسانًا لأن يتجرأ على فؤاده ليذبحه بإلقاء فلذة كبده في اليم؟ ما هذا الشعور الذي يتسبب في اغتيال روح نفسيًا لهذه الدرجة؟ أين كنا جميعًا من تلك الجريمة النكراء التي ترتكب في صحتنا وضمائرنا وكرامتنا؟ من سيدفع تلك الفاتورة الباهظة التي تتضاعف كل يوم مع حالات القتل والموت النفسي؟

تذكرت عمر، علّي الذهاب لربما أستطيع مداواة مرضي؛ حتى أقوى على رصد أمراض البشر، قررت أن أسير لعيادته، حتى أخرج تلك الطاقة السلبية التي توغلت في أعماقي، ربما يزيحها هواء وسط البلد المقربة إلى قلبي، دخلت مطعمًا لتناول غداء سريع، ثم ذهبت إلى عيادة عمر، لا أعرف لماذا يغمرني هذا الشعور بالفرح الممتزج ببعض الخوف، شعور لم أعشه من قبل، ولكنه جميل يعيد إليّ حياتي التي ظننتها قد مضت، يمنحني عمرًا آخر وحياة جديدة، كنت ذاهبة أبحث عن مداواة جسدي ويبدو أنني سأصاب بحالة جنون، فكيف لي أن أشعر كل هذا تجاه شخص لا أعرفه؟ لا يجب أن أترك نفسي لهذا الشعور الذي قد يؤرقني إن استمر، لا بد أن أركز في علاج مرضي؛ فغالبًا كل هذا شعور زائف وهمي.

نادت المساعدة على اسمي لأقتطع تفكيري وأدخل لإجراء الكشف وكنت اعتزمت التركيز في تعبي فقط.

- مساء الخير.

- مساء النور، طمئنيني عليكِ.
- نحمد الله على فضله، لقد خفّ الألم ولكن لم ينته بعد، ربما انبسطت عضلاتي بعض الشيء، وقلّ ثقل رجلي، ولكن لم يرحل عني مطلقًا.
- لا تقلقي، هذا أمر طبيعي.
- كيف يكون طبيعيًا بعد الانتهاء من العلاج؟
- لأن هذا المرض مزمن، يأتي على شكل هجمات وتختفي، أما العلاج فهو مساعد للتعايش مع الألم.
- إذن ليس هناك أمل.
- لا بالطبع، دائمًا هناك أمل.
- كيف سنتعامل معه بعد انتهاء العلاج؟
- هذا العلاج مجرد وسيلة للقدرة على التعايش، ولكن هناك أمورًا تمنحك الراحة أكثر بعيدًا عن المواد الكيميائية.
- ما هي؟
- لا بد من تغيير أسلوب حياتك، أولًا ابتعدي عن أي توتر أو ضغط نفسي، لا بد من الحفاظ على صحتك النفسية؛ لأنها تحسّن كثيرًا من الشعور بالألم، وحاولي أخذ قسط كافٍ من النوم، مع ممارسة الرياضات الخفيفة مثل: المشي، والسباحة، واليوجا، وجلسات التدليك، ستساعدك كثيرًا إذا اتبعت هذا النظام الحياتي الجديد.

- وهل نستطيع العيش من دون الضغوط؟ أظنه مستحيل.
- يُمكن، بالتخلي عما يسبب لك تلك الضغوط، ربما طبيعة عملك تكون هي سبب هذا الشعور.
- عملي به ضغوط كثيرة بالطبع، ولكني أعشقه، لا يمكنني التخلي عنه؛ فهو الشيء الوحيد الذي يشعرني أنني ما زلت على قيد الحياة.
- لماذا تقولين ذلك؟ بالتاكيد لديك الكثير لتؤديه في تلك الحياة.
- ربما هي الصحافة فقط.
- هل أنتِ متزوجة؟

كان صوتي متهدجًا متكسرًا وأنا أجيبه: مطلقة.

- معنى ذلك أن أمامك حياة جديدة ستعيشينها، ربما تكون بها فرص أفضل.
- لا أظن ذلك، يكفيني تلك التجربة، سأكمل حياتي مع مهنتي المحببة.
- استكملي عملك ولكن أين حياتك؟! لابد أن تخصصي مساحة لذاتك، تفكرين في نفسك فحسب، كيف ترضينها وتجعلينها سعيدة.
- أليس ذلك أنانية؟

- بالعكس، لن تستطيعي استكمال العطاء دون إرضاء ذاتك والاهتمام بها، هي علاقة متكاملة، حتى تصبحي متزنة نفسيًا لا تنتظري العطاء من أحد، الشعور بالاكتفاء سيعطيكِ القدرة على المنح أكثر.
- سأحاول فعل ذلك.
- هل الألم ظهر بعد الطلاق؟
- لا، أنا مطلقة حديثًا، ولكن الألم ظهر بعد الزواج بفترة وجيزة.

رأيت علامات الدهشة على وجهه: ألم تتزوجا عن حب؟

- بالعكس تزوجنا عن حب، وكنت أرانا شخصين مناسبين جدًا، ولكن ليس دائمًا ما نراه يكون هو الحقيقة.
- تعلمين أنه برغم عدم اكتشاف سبب لهذا المرض ولكن يتوقع أن يظهر بعد صدمة جسدية أو نفسية.
- هو بالفعل بدأ بعد ضغط نفسي شديد.
- لذا يجب أن تتخلصي من أية ضغوط نفسية مهما كانت أهمية سببها، فصحتك أهم، ولا أحد سيشعر بحجم آلامك سوى أنتِ؛ فعليك أن تدللي نفسك وتردي لها الجميل.
- سأحاول.

- حدثيني في أي وقت، وإن أتحتِ لي أن أساعدك في تغيير روتينك اليومي ستشعرين بالفرق، ويمكنك أن تتخذيني صديقًا.
- أشكرك يا دكتور.
- سأنتظر مكالمتك.

خرجت من العيادة وكلماته ترّن في ذهني، ربما أنا من فعلت ذلك بنفسي، لماذا لم انتبه لأن تلك الأعراض ظهرت بعد الزواج حتى لو كان بعد معرفة عقمي، ولكن ربما حقًا لم أكن سعيدة، وكنت أتوهم ذلك، أظنني لو كنت كذلك لما وقعت تحت هذا الضغط النفسي الذي أوصلني إلى تلك الحالة، لماذا لم أسأل نفسي هذا السؤال من قبل؟ هل أنا حقًا كنت سعيدة معه؟ أم هو أوهمني بذلك ليبعد عنه الاتهامات؟ هو من أشعرني بالعجز بطريقة غير مباشرة؛ حتى لا أمسك عليه أي دليل على فعلته، في حين أنه قاضيًا يحكم بين الناس!

كثيرًا ما كان ينهرني لأني انفعلت عليه، أتذكر هذا اليوم الذي اختلفنا بسبب عدم رغبتي في الذهاب لأطباء مرة أخرى فانقلبت ملامح وجهه وخرج ولم يحادثني أو يعود لأيام وكنت أتصل عليه وأتودد إليه، وهو يقول: لقد سئمت منك ومن أفعالك؛ فأنا أتحمل فوق طاقتي من أجلك.

ربما كان كل همي وقتها أن أعيده إلى بيته وأمتص غضبه؛ لأنني انفعلت عليه وهو يخشى عليّ، ولكن الآن -وأنا أنظر من الخارج- أشعر أنني كنت أتحامل على نفسي من أجله، لماذا هو لم يتحمَّل انفعال امرأة مريضة تمرّ بحالة ضعف تجعلها هشة؟ بدلًا من احتوائي قرر الابتعاد عني، وافتعال أزمة، وماذا كان يقدّم لي فوق طاقته؟ أنا لم أحمله أي عبء، على العكس، لقد كنت أزيح أية ضغوط من عليه ولا أشعره بأي مسئولية تجاهي، بل كنت أواجه أية مشكلة تخصّ بيتنا وحدي دون الرجوع إليه، الآن أدركت كم كنت تعيسة دون أن أنتبه، كنت أتوهم السعادة؛ لأنني كنت أظنه الاختيار الأمثل، ولكن الحقيقة الصماء التي صدمت بها أنني كنت منخدعة طوال تلك الفترة، أو بمعنى أدق أنا من خدعت نفسي بنفسي، أعطيته فوق قدره فاستهان بقدري، عليّ أن أصلي صلاة شكر لله؛ لأنه أظهره لي على حقيقته، وخلّصني من هذا السم المدسوس في العسل.

وصلت إلى شقتي وأنا تائهة في بحر الأفكار، والتحليلات الجديدة عليّ، أدركت أنني بدأت أرى الحقيقة بصورة أكثر وضوحًا، لم يعد هناك ما يثير دهشتي، أو يجعلني أحسّ بالصدمة بل كان ذلك أمرًا طبيعيًا ونتيجة حتمية لما كنا عليه، فقط كنت أتمسك بحبل هش يتمزق مني مع أول شدة، حياة سوداء مليئة بالأزمات المصطنعة، لقد كان يغتال مشاعري تدريجيًا

بطريقة غير مباشرة، حرب باردة يشنها عليَّ كمن يحصدون الأرواح ببث الأفكار المسمومة في العقول.

فكرت في طبيعة مرضي، رأيته مرآة لكل ما يدور حولنا، نحن جميعًا مصابون دون أن نشعر، المجتمع كله مصاب بهذا الألم الصامت، مع تفاوت الأسباب والشدة، ولكن لا يجب أن نستسلم مطلقًا مهما كانت الصعوبات، الحل في المؤازرة والتلاحم؛ حتى نشعر جميعًا ببعضنا البعض، ونقلل آلامنا المختلفة، قررت أن أغيّر طريقة حياتي كما أرشدني الدكتور عمر، سأبدأ بتمارين اليوجا، ولكني لا أعرف كيف أمارسها، أرسلت له رسالة على "واتس آب": مساء الخير دكتور عمر.

- مساء الفل.
- لقد قررت العمل بنصيحتك، ولكني نسيت أن أسألك كيف أمارس اليوجا.
- سعيد بقرارك السريع، سأرسل لك فيديوهات خاصة بتمارين اليوجا.
- أشكرك.

بالفعل أرسل إليَّ مجموعة من الفيديوهات وبدأت أشاهدها وأقلّد ما بها، شعرت باسترخاء عميق من النَفس الذي آخذه، وعضلات جسدي

ترتخي رويدًا رويدًا، الأهم هو تلك الراحة التي تتوغل داخلي وأنا أستمع إلى أنغام الموسيقى الهادئة، روحي تسمو معها، وقلبي يهدأ بتلك الأنفاس الطويلة العميقة، لا أعرف كيف صمدت كل تلك الفترة دون أن أنتبه إلى نفسي واحتياجاتها، لم أفكر في ذاتي أو تهدئة نفسيتي، كنت أنشغل بهموم غيري فقط؛ فقد كان يوهمني أن نفسي لا تستحق، وأنا تبرمجت على كلامه دون أن أدري، أصبحت أهمش نفسي، أسير وفقًا لما يريد فقط، فأنا لا أستطيع الإنجاب، وأصابني الهم والحزن لذلك دون أن أفكر هل أنا حقًا أرغب في هذا أو مؤهلة نفسيًا له؟

لقد عادت إليّ نفسي التائهة مني منذ سنوات مرت دون أن أدري، أوقات ضائعة بين الوهم والواقع المزيف وأنين الجسد وآلام النفس، لم أكن وقتها أشعر بذاتي الحقيقية وقيمتها العالية، لم أكن أحبها سوى اليوم، تيقنت أنها تستحق الحب وهي الجديرة بأن أشتاق إليها؛ لأنها ستحنو عليّ إن ضاقت بي الدنيا، وتؤدبني إن أخطأت، فلا يمكن لإنسان أن يحب غيره ويعطي دون أن يحب نفسه ويتصالح معها، وإلا سيكون عبئًا عليه يقوده إلى كره العالم أجمع، فتقدير قيمتك الحقيقية يمنحك طرف الخيط لإصلاح عيوبك والسمو بذاتك، ويعطيك الثقة التي بها تمد يد العون لغيرك، فأنت لست بحاجة إلى أحد سوى نفسك.

الآن يمكنني النوم دون قلق أو أرق، كفاني تفكيرًا، ويكفيني عودة ذاتي إليّ، أشغلت الموسيقى الهادئة، ثم استيقظت الساعة الخامسة فجرًا، صليت ونزلت لأتمشى قليلًا وسط نسمة الهواء المنتشرة في غياب البشر، حتى أعيد النشاط والحيوية لجسدي وأعيد الحماسة لروحي.

5

كانت الشمس متأججة كنار ملتهبة تنشر شظاياها على أوجه السائرين فتمتعض، عندما نزلت من شقتي المعنزلة من الداخل بفعل المواد الحديثة التي يصنّعون بها الأبواب والنوافذ، فتمنع عني الحرارة والضوضاء، ولكن الحياة في الخارج مختلفة تمامًا، فتشت بين الوجوه عن بسمة فلم أجد، فقررت أن أكلّف ثغري الابتسام؛ لأنني ذاهبة إلى نورا لأطمئن عليها؛ لقد أنهت فترة مكوثها بالمنزل، ولم أعرف ماذا فعلت بالقضية؛ شغلتني أعباء الحياة والعمل، أخذت سيارتي وانطلقت إلى حي السيدة زينب.

لم ألتفت إلى تهشم جدران هذا البيت البسيط القاطن وسط الحارة الضيقة بقدر ما جذبتني تلك الروح الحانية التي تحيط بي منذ دخلت الشارع، شعرت بحجم النعم التي أنعم الله عليّ بها عندما رأيتهم راضين بعيشتهم، هم يعانون ماديًا ومعنويًا ونفسيًا ولكنهم يتجاوزون الألم، أو ربما ليس لديهم رفاهية التعبير عن ألمهم، وربما كما "فيبروميالجيا" نراهم راضين وسعداء وهم يعانون كل لحظة دون أن ندري.

طرقت باب الشقة لتفتح لي نورا، وترحب بي بابتسامة: أهلًا وسهلًا، نورتي البيت.

- كيف حالك يا عزيزتي؟

- الحمد لله بخير.
- هل ذهبتِ لطبيب أو مستشفى لتطمأني على قدرتك على العودة إلى الحياة الطبيعية؟
- نعم، وسمح لي بالعمل والذهاب إلى الكلية، ولكنه كتب لي بعض الأدوية.
- الحمد لله، وهل هناك جديد بالقضية؟
- نعم، كلمنا رجل الأعمال الشهير وعرض علينا مبلغ تعويض كبير؛ حتى نتنازل عن القضية.
- وما ردكم؟
- لا أعلم، ولكن حقًا نحن بحاجة إلى تلك الأموال.
- عامة هذا التعويض من حقك، وربما فعل الله ذلك ليحسّن حياتك ويعوّضك عما حدث لوالدك، ما دمت أنت بخير افعلي ما يصب في مصلحتك.

خرجت من عندها ولدي يقين بأن هذا الحادث جاء ليعوّضها عما واجهته في حياتها من ويلات وأوجاع؛ فالله –عز وجل– له حكمة في كل شيء، يدبّر هذا الحادث الأليم ليرحمها من الفقر الذي اكتوت بنيرانه وتجرعت مرارته، تذكرت قوله تعالى: "وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ

لَكُمْ"، فحقًا يعلم الله ما لا نعلم، ويدرك ما لا ندرك، فما ظننا أنه فاجعة وجدناه انفراجًا، وكأنها مكافأة الله للراضين بقضائه، قطع تفكيري صوت رنات هاتفي، إنه ضابط الشرطة الذي تعرفت إليه من قبل: مساء الخير يا باشا.

هكذا يحبّون أن يلقّبون برغم انتهاء الألقاب، ولكن كل من يتعامل مع أقسام الشرطة يعرف أنها لم تنته بعد.

- لدي خبر لكِ بمليون جنيه.
- خيرًا
- زوجة الممثل الشهير باهي لطفي قدمت بلاغًا باختفائه.
- اختفاؤه؟! كيف حدث ذلك؟
- خرج ليصور مشهدًا منذ يومين ولم يعد حتى الآن، وهاتفه مغلق، وتقدمت ببلاغ منذ دقائق، سبق صحفي لك.
- أشكرك، ولو أمكن ترسل إليَّ صورة البلاغ أو رقمه.
- من عيوني.

أعرف أنه لا يفعل ذلك حبًا في شخصي، أو حرصًا على مصلحتي، ولكن تبادل منافع، فهو يعطيني سبقًا حتى أزّج باسمه في أخبار الحوادث التي ينجح في الكشف عنها، وأحيانًا يلجأ للرأي العام في قضايا محددة،

ولكنه أمر لا بأس به ما دام لا يخلّ بالمهنية.

أغلقت الهاتف مصدومة من إثر ما سمعت، حتى المشاهير يتعرضون للاعتداء والخطف، كنا نظن أن الجرائم تميّز بين الغني والفقير، يبدو أننا ظلمناها؛ فقد أصبحت عمياء كنار لا تبقي ولا تذر، أرسل إليَّ الضابط صورة البلاغ ورقمه، وأرسلت لهم الخبر واحتفظت بتلك الوثيقة التي تثبت صحة معلوماتي.

ما زلت أفكر في هذا الحادث الغامض، أين اختفى وكيف ولماذا؟ فهو يصور فيلمًا حاليًا، قد يكون شخصًا يريد الإيقاع بالمنتج أو إيقاف هذا الفيلم، لا بد أن أتواصل مع صحفيي الفن أو أبحث عن قصته ربما يكون بها السر.

يحكي الفيلم قصة رجل مريض نفسيًا بسبب تعرضه للاضطهاد والتعنت على مدار حياته، كان من أسرة فقيرة، وظل يترنح فكريًا بين الجماعات المتطرفة يمينًا ويسارًا، بين دعاة الدين الذين يكتشف بعد ذلك أنهم لا يعرفون عنه شيئًا سوى شعارات، وبين دعاة الحرية الذين لا يعرفون أيضًا عنها شيئا سوى شعارات، والطرفان يؤذيان غيرهم مع سبق الإصرار والترصد، حتى قُتل والده غدرًا في مناوشات بضرب النار بين إحدى الجماعات والشرطة، بعدها تتحول أحداث الفيلم وينقلب لشخص عدواني هائج.

ربما ذلك جدير بأن يتحرك ضده أحد الأطراف المتنازعة في الفيلم، أظن هذا له علاقة بالاختفاء الغامض، ولكن لماذا هو بالتحديد؟ لماذا لا يكون المنتج أو المخرج أو المؤلف وهو الأقرب للإدانة؟ في الأغلب هناك سر آخر وراء هذا.

عكفت أيامًا أتابع تلك القضية الغامضة، وتوصلت إلى رقم زوجته وأخذت معها موعدًا، ذهبت إليها في فيلا بأحد الشوارع الهادئة في حي الدقي، معمارها متميز من الخارج، تبدو فيها علامات الفن والإبداع، مجرد رؤيتها تعرف أنها ملك لفنان يقدّر قيمة الجمال. غريب هذا الزمن الذي يعطي من يشاء وينزع ممن يشاء، البعض يعيش في قصور فخمة، والبعض الآخر يعيش في مبانٍ متهالكة، وفي النهاية يجمعهم شيء واحد هو الألم، ولكن كل على طريقته الخاصة.

دخلت البيت لأجده مغمورًا بالحزن، متشحًا بالسواد، الشبابيك لم تفتح منذ أيام، والشمس لم تدخله؛ فأصبح كئيبًا، قابلتني مديرة المنزل كما يسمونها في تلك الطبقة، وهو شيء حميد، حتى لا تنجرح مشاعر الخادمات؛ ففي النهاية هي تكسب قوت يومها بعرقها، أشارت إلى مكان زوجة باهي، رأيت سيدة جميلة تبدو في العشرينيات من عمرها، ولكن يغمر وجهها البؤس ويطفو عليه الهم، الدموع تنهمر من عينها المتورمة؛ فلم يغنها المال كما يزعمون بأن الأثرياء لا يحزنون.

سألتها: يبدو أنها حزينة.

- إنها تقطع نفسها بكاءً منذ غيابه، كان بينهما قصة حب كبيرة، لم أر زوجين بمثل تلك الطاقة العاطفية مع مرور السنوات.
- أعاده الله سالمًا، هكذا هي الدنيا لا تترك أحدًا على حاله.

اقتربت منها ومددت إليها يدي بالسلام: مساء الخير.

ردت بصوت متهدج منكسر: مساء الخير، ولكن من أين يأتي هذا الخير، لقد ذهب مع باهي، ولن يعود سوى معه.

- قلبي معك، بإذن الله سيعود قريبًا، لا تقلقي.
- أنتظره بشغف، لا أشعر بطعم الحياة من دونه، لا تعرفين كم كان يمثّل بالنسبة لي، هو كل شيء، الأب والابن والسند.

تذكرت طليقي -لم تعد تلك الكلمة غريبة على أذني كما كانت، ولم تعد قاسية مطلقًا، هو عبء تخلصت منه- كنت أظنه هكذا، ثم تلقيت أكبر صفعة في حياتي، ولكنه ليس مقياسًا، لا يجب أن نأخذ الذكور بذنب نذلٍ منهم.

- أعاده الله إليكِ، أعلم حجم المعاناة التي تشعرين بها، ولكني جئت هنا لأعرف منك أشياءً ربما تساعد في العثور عليه، وعذرًا لإجراء هذا الحوار في هذا الوقت، ولكننا جميعًا هدفنا الوصول للحقيقة

والاطمئنان على سلامته.

- أقدّر ذلك، وعذرًا لعدم قدرتي على الترحيب بك كما يجب. ماذا تودين أن تشربي؟
- لا شيء، دعينا نبدأ حديثنا؛ حتى لا أطيل عليك.
- تفضلي.
- هل تشكّين في أحد؟ أو له أي أعداء؟
- لا مطلقًا، هو شخص محبوب وسط جميع الناس.
- حدثيني عن آخر لقاء بينكما.

انهمرت الدموع من عينيها وأجهشت بالبكاء، قالت: كان طبيعيًا جدًا، ودّعني بقبلته المعهودة، وأخبرني أنه لن يتأخر عليّ، وبعد أن أنهى التصوير حدثني ليخبرني أنه في الطريق، وكنت جهزت له عشاء عاطفيًا كما اعتدنا.

- وماذا حدث بعدها؟
- لا شيء، انتظرته فلم يأت، وعندما تأخر هاتفت المخرج، أخبرني أنه انصرف منذ ساعات وقت أن حادثني، ذهبت إلى الشرطة عرفت أنه عليّ الانتظار ٤٨ ساعة على غيابه.

قاطع حديثنا اتصال هاتفي خاص بها، ردّت: مساء الخير.

- حقيقي؟ وجدوه؟
- أين؟
- سأحضر حالًا.

أغلقت الهاتف وقالت بنبرة متعجلة بها لمسة ابتهاج: عذرًا، سأضطر إلى النزول؛ لقد وجدوه وعليّ أن أذهب إلى المستشفى للتعرف عليه... ارتعش صوتها وتوقفت عند تلك الكلمة لماذا أتعرف عليه؟ ألم يخبرهم من هو أم ضاعت منه أوراقه؟ ربما أصيب في حادث، وأجهشت بالبكاء.

- أرجوكِ اهدئي، سيكون بخير.

نظرت إليّ بتمنٍ.

- تسمحي لي أن أوصلك إلى المستشفى.
- أكون شاكرة لك، فأنا لستِ بحالة تسمح لي بالقيادة.

توجهنا معًا إلى المستشفى، لنعرف أنهم عثروا على سيارته عند أحد عصابات سرقة السيارات في الإسكندرية، وبالتحقيق استدلوا على أنهم وجدوها في طريق مصر إسكندرية، وبالبحث وجدوا جثمانه ملقى بداخل الصحراء، فور سماعها ذلك انهارت مني وسقطت مغشيًا عليها، دخلت غرفة الطوارئ لإجراء اللازم قبل أن تذهب إلى المكان الأكثر رعبًا للتعرف على جثمان زوجها.

استعدت لدخول ثلاجة الموتى، تشبثت بيدي بقوة، وقالت: أرجوكِ لا تتركيني وحدي.

وقع هذا التوسل عليّ كالصدمة، لم أتخيل يومًا أنني يمكن أن أمرّ بذلك الظرف، أو أن أدخل تلك الغرفة المظلمة الموحشة، فأنا أعمل بمجال الحوادث منذ ما يقرب من ١٤ عامًا، ولكن لم أتجرأ يومًا على دخولها، ولم أفقد ذات يوم ارتعادي من حرمة الدم ورعشة جسدي عندما أرى ميتًا، ولكنها وضعتني أمام مسئولية كبيرة بعدم التخلي عنها في ذلك الموقف الجلل، فقررت الدخول معها.

لا تزال تتشبث بيدي كطفلة صغيرة تخشى أن تتركها أمها وتمضي، دخلنا ثلاجة الموتى، يدها تنتفض داخل يدي المرتعشة، أسمع دقات قلوبنا الثائرة، إنها هيبة الموت التي لم نستطع مواجتها بعد، فماذا لو كنت سترى حبيبًا تسكن روحه جسدك، اقتربنا على مهل، وكشفوا وجهه لها لتراه ملطخًا بالدماء، سألها الضابط: هل هذا زوجك؟، أومأت له بالإيجاب، وهي تبكي، فسالت دموعي وسارت القشعريرة في جسدي، شعرت بانقلاب معدتي، وأحسست بالغثيان، فقد شممت رائحة الموت الدامي، ولكني تماسكت لأنني وافقت على تحمل تلك المسئولية، شعرت بعدم اتزانها فسندتها بكل طاقتي، حتى خرجنا من الغرفة ورجلي تتثاقل وكأنها

أطنان، أوقفتني عن السير، فارتكزنا سويًا على الجدار، وبدأ صوتها يتصاعد بالبكاء.

التقطت أنفاسًا عميقة متتالية، واصطحبتها معي لأوصلها قبل أن أعود إلى بيتي، حتى أحاول استعادة أعصابي، وكتابة تلك القصة الصحفية في غمرة شعوري به، ثم تسطحت بجسدي على السرير في محاولة للتخلص من هذا الحزن الممتزج بالخوف، مسكت هاتفي وأشغلت سورة (يس)؛ لأنني أعلم أنها تريح الموتى والأحياء.

ظللت منشغلة بتلك القضية لأيام؛ لأنني رغمًا عني دخلت بها، واختلطت مشاعري بالحادث، توغل داخلي إحساس عدم الأمان، فهل هي حادثة سرقة بالإكراه حقًا؟ وإن كانت، ما الذي جعله يتحرك نحو الإسكندرية؟ أم أنهم سرقوه هنا ثم نقلوه هناك؟، ظهر تقرير الطب الشرعي بأنه توفى على إثر تعرضه لاختناق وتعدٍ بالضرب، ولكن المدهش أنني وجدت مواقع التواصل الاجتماعي منقلبة على القيادات السياسية يتهمونها بالتصفية ويتداولون مقطع فيديو لحديثه عن احتكار السينما لصالح جهات معينة، وتوصيف ذلك بمحاربة الفن.

لا أعلم هذا التفسير صحيحًا أم لا، ولكن كل شيء وارد، فربما تصفية عن عمدٍ من أية جهة كان يهاجمها، وربما حادث سرقة بالإكراه، وربما شيء آخر لم نعرفه بعد، واستكملت كتاباتي في تلك القضية التي تحولت إلى رأي

عام، حتى صدر قرار النائب العام بحظر النشر، وكان غريبًا بالنسبة لي، لماذا يثيرون الشكوك لدى المواطنين؟ ولكن لا تعليق على أحكام القضاء وعلينا احترامه.

تفاجأت صباح اليوم التالي بورقة تحمل اسمي معلقة على لوحة الجريدة، إنه شكر وتقدير لجهودي في تلك القضية وصرف مكافأة لي، ليس لحرصي على المهنية ونقل الصورة كاملة، وسعيي لتقصي الحقائق، والالتزام بأخلاقيات المهنة، ولكن لأن تلك الأخبار حققت أعلى معدل زيارات!

وجدت التهاني تنهال عليّ مِن جميع الزملاء، وشكرني رئيس التحرير، وكنت أظهر السعادة بالطبع، حتى إن كنت من داخلي حزينة على الاعتماد على الزيارات بتقييم الإنجازات، في العموم لم أنتظر أي شيء من ذلك، فأنا أؤدي واجبي الذي يجب أن يؤديه جميع العاملين بتلك المهنة المقدسة، ولكن عندما ضاعت المعايير فقدنا الشغف، ولجأنا إلى الأخبار السريعة قصيرة الأجل.

وربما تكون فرحتي بالمكافأة- أيًا كان سببها- ضاعت وسط الهموم التي تثاقلت داخلي؛ فرأسي يفكر في جميع الاتجاهات، وما زلت متأثرة بزوجة باهي، صوتها المدبوح يرّن في أذني، بين عشية وضحاها سُلب منها أعز من لديها، كيف ستسترد تلك السيدة الأمان، شعرت بضيق شديد في صدري لم تعد تمارين التنفس تجدي معي، تذكرت دكتور عمر فهو ملجأي

الوحيد الآن، لا أحد سيشعر بي غيره، هو الوحيد الذي يعرف طبيعة حالتي، وربما هو الوحيد الذي سيحسن حالتي النفسية ويمحو كل تلك النقاط السوداء التي توغلت داخلي، لا أعرف لماذا أشعر بذلك نحوه، إحساس غريب لم أحسه من قبل، وكأن روحي تعلقت به، هو طاقة النور المتوهجة في كنف الظلام الداهم، ليس مهمًا ما سبب رغبتي في اللجوء إليه، الأهم أنني أرغب في ذلك، وسأفعل ما أريد دون إضافة عبء ذهني عليّ في كيف سيراني أو يفسر أي تصرف مني.

حادثته هاتفيًا ولكنه لم يرد، فعدت لحزني وشعرت أنه لا أمل فيما أفكر فيه، حقًا هو شعور أحمق، فكيف لي أن أنجذب إلى شخص لا أعرفه، حتى إن كنت أشعر أنني أعرفه منذ سنوات، عيناه تلك المتوهجتان بنور الأمل اختطفتني لعالم مشرق، عالم نقي لا يتخلله البؤس أو الضغينة، عالم مبهج ليس به سوى الراحة التي لا نشعر بها سوى مع ذوي الأرواح الصافية المعلّقة بروح الله.

سمعت رنة الهاتف دقّ قلبي، إنه هو مَن يهاتفني لتنزاح جميع الهموم من نفسي فجأة وأرد عليه: أعتذر عن الإزعاج أولًا، ولكن حالتي تزداد سوءًا ولا أعرف ماذا أفعل؟

- مساء الخير أولًا، أنا تحت أمرك في أي وقت، يمكنك زيارتي بالعيادة، ويمكن أن نلتقي بعد أن ننهي عملنا، بعيدًا عن جو المرض.

تريثت قليلًا قبل أن أردّ عليه: حسنًا حدد الموعد المناسب، والمكان الذي تحب.

- سأنتهي من العيادة الساعة الثامنة، يمكننا الالتقاء في أي مكان قريب منك.
- وسط البلد مناسب، أنا أسكن في عبد الخالق ثروت.
- اتفقنا، سأختار كافيتريا قريبة في الشارع نفسه أو قريبة منه.

6

ظللت أتأمل في وجههي من خلال المرآة كثيرًا قبل أن أذهب إلى الكافيتريا التي حددها عمر معي، لا أعرف لماذا، كل ما في الأمر أنني أحببت نفسي بعض الشيء، بدأت أرى جمالي بعد أن كنت أستاء بمجرد النظر إليَّ، بالطبع أرى عيوبًا في شكلي، ولكني بدأت أنظر لها كشيء يمكن علاجه من خلال الاهتمام به، وليس كعيب لا يمكن إصلاحه كما كنت أشعر، لقد أصبحت أفضل على جميع الأصعدة، رُبَّ ما تظنه نقمة يكون من أفضل النعم عليك.

تختلط عليَّ مشاعري بين الرغبة والخوف من هذا اللقاء، ربما يقربنا أكثر وربما يبعدنا ويفسد عليّ أحلامي الغريبة، لا أعرف ماذا يحدث لي تجاهه، ربما وجهه المريح البشوش الذي يبدو عليه ملامح الحنان والحسم في نفس الوقت، تلك الشخصية التي تستهويني في الرجال، الاتزان وحب التغيير في ذات الوقت، ولكن قد تكون خدعتني مشاعري ولم يكن تحليلي صحيح؛ لذا أخشى هذا اللقاء.

دخلت الكافيتريا وجدته يأخذه خياله بعيدًا، قطعت حبل أفكاره: مساء الخير

تبسّم لي ودعاني للجلوس، اختطفتني عيناه، ولكن رأيت لونها البني الفاتح تلك المرة، لا أعرف كيف لم أنتبه للونها من قبل، ربما لأنني انجرفت في أعماقها أكثر، جلسنا نتحدث قليلًا، وجدته يمتلك قلبًا صافيًا كطفل صغير، وعقلًا فذًا كرجل كبير في السن، أتقن حكم الحياة، عدنا بالحدث إلى مرضي.

- ماذا حدث وأعاد لك تلك الهجمة؟
- بسبب تصرفات البشر الهمجية، كنت أتابع حادث قتل أرهقني نفسيًا.
- أعلم أنك تحبين عملك، وبالتالي هو مفيد بالنسبة لك، ويجب أن يحسّن حالتك النفسية، ولكن إن أثر عليك بالسلب فعليكِ أن تجري بعض التغييرات بحياتك.
- ما زلت أشعر أنني بحاجة إلى العمل، لم أضجر منه بعد.
- استمري فيه، ولكن لا تدعيه يؤثر على حياتك، أو غيّري التخصص. هل تمارسين اليوجا؟
- لا، مارستها أول يومين وبعدها لم أشعر أنها تفرق معي؛ فلم أنتظم عليها.
- هل تثقين بي؟

- لا أنا مؤمنة بك، لا أعرف كيف فعلت بي ذلك، ولكن تلك فتوى قلبي، ويقيني بأنّ سر علاجي معك.

سكت قليلًا قبل أن يقول: كنت سأخبرك أن الثقة في الطبيب جزء كبير من العلاج، ولكن كلماتك تضعني أمام مسئولية أكبر، اتركي نفسك لي، وانتظري النتائج.

- اتفقنا، ماذا عليّ أن أفعل؟
- أولًا مارسي اليوجا بانتظام يوميًا، وحاولي السير لمدة ساعة على الأقل، وبعدها نبدأ تمارين السباحة.
- ولكني لم أتعلم السباحة، وأخشى منها.
- سأعلّمك، ولكن أهم شيء هو البعد عن التفكير بعد العودة إلى المنزل.
- اتفقنا.. سأحاول.

انتهى اللقاء ولم أكن أود أن ينتهي، كنت أشعر بارتياح لم أشعر به من قبل، كنت أتوقع أن يهدئ لقاؤنا لهيب شوقي، ولكنه تأجج لتلك الدرجة التي لا أستطيع إخماده، لقد تمكّن من السيطرة عليّ، والاستحواذ على قلبي وعقلي وروحي، فهو يشبه المغناطيس يجذبني دون مجهود، ولا يمكنني الابتعاد عنه دون مقاومة، هو كالسماء الحانية يطمئنني ويوهبني الأمان

المفقود، هو كما البحر الدافئ العميق بعد أن انتزع منه غدره، هو الجزء النقي في هذا الكوكب اللعين، صدق من قال إن الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، أنا أشعر أن روحي تعلقت بروحه وكأننا سويًا منذ سنوات، أنا أعرفه حقًا ربما رأيته في حياتي السابقة بفرضية أن الروح تبعث ألف مرة.

مرت الأيام دون أن يحادثني لكن ذهني منشغل به، صورته لم تفارق خيالي، أراه أمامي في كل مكان، يطاردني طيفه في كل وقت، يبدو أنني قد جننت به، ولكن حتى إن كنت مريضة به فلن أبحث عن علاج، فهذا لم يكن شيئًا سيئًا؛ فوجوده بحياتي حتى -لو كان طيفًا- يشجعني ويقويني، وقد كانوا يقولون لنا: تمسّك بكل من يدفعك إلى الأمام.

ذهبت إلى عملي ككل يوم، وكنت بين حين وآخر أطمئن على زوجة الفنان المقتول، ولكن حدثتها اليوم فلم تجب، قررت أن أذهب إليها بعد انتهاء العمل، ولكن حدث أمر عرقلني عن ذلك، وصلتني رسالة على البريد الإلكتروني بها بيان من النيابة العامة، لقد رفعوا حظر النشر عن القضية، وتوصلوا إلى الجاني الحقيقي، وأُلقي القبض عليه صباح اليوم. كانت المفاجأة بالنسبة لي أن يكون هذا الجاني هو تلك الزوجة المكلومة، كيف تقتله وقد رأيتها تنهار أمام عيني عندما رأته، كانت تعيش على أمل عودته، ربما أخذوها كبش فداء ليتستّروا على شخص آخر أو ربما مظلومة.

استكملت البيان، اتفقت الزوجة مع عشيقها على قتل المجني عليه بعد أن بدأ يشك بها؛ بسبب سماعه مكالمة بينهما بمحض الصدفة وبرغم إنكارها، إلا أنه بدأ في مراقبتها، وعندما واجهته بتذمرها من معاملته هددها بالطلاق، فخشيت من وضعها الاجتماعي وفقدان المكانة الاقتصادية التي تحظى بها معه، فدبرت لمقتله؛ لتعيش حياتها مع عشيقها وتحظى بالميراث، طلبت الزوجة من الخادمة الرحيل مبكرًا في هذا اليوم بعد أن تحضّر عشاءً رومانسيًا وتهيئ جوًا احتفاليًا؛ لإيهامها بأنها تريد إقامة سهرة عاطفية مع زوجها، ثم دعت العشيق إلى المنزل قبل أن يحضر الزوج واختبأ بإحدى الغرف حتى وصل، وظلت الزوجة تعتذر إليه وتتوسل إليه بمسامحتها، حتى استعطفته وهم باحتضانها فظهر العشيق من ظهره لخنقه، فسحب المجني عليه في يده بضع شعرات من زوجته، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

نقله الجاني إلى سيارته وساق به على طريق الإسكندرية الصحراوي ثم تركه على بعد أمتار من الطريق العام، وترك سيارته، وعاد من خلال استيقاف سيارة أخرى بزعم أن سيارته قد تعطلت، ولعب الحظ دورًا مع الجناة، ما تسبب في غياب الجاني لأيام بسبب سرقة إحدى العصابات سيارته، وبالعثور عليها تمكنوا من الوصول إلى الجثمان، والتشكك في احتمالية أن تكون جناية قتل بدافع السرقة.

لم تكن الجريمة كاملة؛ ففي غمار الأحداث نسيت الزوجة حذف محادثات "واتس آب" من هاتف زوجها، فقد نشبت مشادات كلامية بينهما في الأيام الأخيرة قبل الحادث، ولم ينتبهوا إلى وجود الهاتف في جيب المجني عليه، وتركوه يذهب معه إلى الصحراء، وبعد التحقيق وتفتيش الهاتف، شكّت النيابة في أمر زوجته خاصة أنها قالت إن العلاقة كانت جيدة بينهما وكانت تنتظره في حفل عشاء، وبتحليل الحامض النووي للشعرة التي كانت بين ثنايا أظافره تبين أنها من زوجته، وتم القبض عليها، وبمواجهتها قالت إنها لم تقتله ولكن شخصًا غريبًا دخل المنزل وحاول الهجوم عليه، ولكن تمكنت النيابة من القبض عليه بتتبع هاتف الزوجة، واعترف بتفاصيل الجريمة كاملة، وحكمت النيابة بحبسهما أربعة أيام على ذمة التحقيق.

تفاصيل مثيرة توصلت إليها النيابة العامة بالطبع، ولكنني تألمت بها كثيرًا؛ لأنني تعاطفت مع المتهمة، وصدقت بكاءها ونحيبها عندما فقدت زوجها، صدقت تلك الصدمة التي أوهمتنا بها عندما رأت جثمانه في ثلاجة الموتى، أحزنني أنني ما زلت أنخدع بالمظاهر الكاذبة بعد هذا العمر، وتلك الخبرة التي اكتسبتها خلال سنوات عملي بالمجال، لقد انجرفت وراء مشاعري تجاه الجاني عندما ظننته المجني عليه، تأثرت بمشاعر الفقد والخوف والوحدة، وضعت نفسي مكانها فضاقت عليّ الدنيا، كل ذلك

وجدته وهمًا، فكيف أثق بذاتي مرة ثانية؟ كيف أسير وراء قناعاتي وتحليلاتي وقد فشلت فشلًا ذريعًا في التفريق بين المتهم والضحية؟ لقد خانني شعوري تلك المرة وأظن أنني لن أستطيع تصديقها مرة ثانية؟ حتى عمر لم يحادثني منذ لقائنا، غالبًا هو شعور من طرف واحد، وهو لم يحسّ بي على الإطلاق.

أعدت صياغة الخبر وأرسلته للنشر، وكتبت قصة خبرية عن تلك المأساة بعد رفع قرار حظر النشر؛ فلا بد أن يعرف الجميع الحقيقة كاملة؛ ليدرك الجميع حجم المأساة التي نعيشها في هذا الزمن؛ فالجاني الآن أصبح يتقمص شخصية الضحية ويخدعنا كما يخدع ضحاياه، ما كل هذا الجحود الذي توغّل في النفوس؟ الزوجة تخون زوجها ثم تقتله دفاعًا عن خطأها، ثم تقيم عليه الحداد وتبادر بالعويل والصراخ والانهيار حزنًا عليه وكأنها تفاجأت، أشعر بالغثيان بسبب هذا الكم من الشر والحقد الذي احتل النفوس البشرية، وكل تلك المآسي التي نراها كل يوم.

فتحت حسابي على فيسبوك؛ لأطلع على آخر المستجدات بين البشر، وقعت عيني على مقطع فيديو لفتاة صغيرة ومرفق عليه تعليق أشعر بالحزن، نقرت عليه لأشاهده، فتاة في سن المراهقة يمتلأ وجهها بالثبات وعيناها بالدموع وتقول بنبرة متقطعة: "سامحوني لم يعد لدي أي بديل آخر، لقد تعرضت لإهانة قاسية أمام زملائي لأنني ابنة فلاح بسيط ليس لي سند أو

ظهر أستند عليه، وأهلي يرون أن الأفضل لي ترك التعليم، وينهالون عليّ بالضرب كل يوم، فأنا بلا مستقبل ولا أستطيع تحمل كل تلك المهانة مرة ثانية، اليوم معلمتي صفعتني على وجهي، وعندما اشتكيت لمدير المدرسة نهرني ودافع عنها، ولجأت لأبي فأخبرني أنني السبب؛ لإصراري على استكمال تعليمي، اذكروني بالخير ولا تجرحوني بعد وفاتي كما فعلتم ذلك بحياتي. أرجوكم دافعوا عن أبنائكم لآخر نفس، ولا تفعلوا بهم ما فعل أهلي بي".

حاولت التوصل إلى مصدر هذا الفيديو حتى وصلت إلى حساب البنت، حاولت التواصل معها بلا جدوى، قرأت بياناتها وعلمت أنها تُدعَى منى في الصف الأول الثانوي، تبلغ من العمر 15 عامًا، من بسيون في محافظة الغربية، جميع صورها على فيسبوك حزينة، يبدو أنها تعاني من قهر طوال حياتها، ظللت أفتش في حسابها؛ لأصل إلى أي شخص ذي صلة قرابة منها، وصلت لأخيها وراسلته.

- مساء الخير، أود الاطمئنان على منى.
- انتقلت لمستشفى بسيون المركزي وحوّلتها لمستشفى طنطا الجامعي؛ لخطورة حالتها.
- ماذا فعلت بنفسها؟
- دعواتك لها.

شعرت أنه لا يريد الإجابة على سؤالي، ربما لأنها في الأغلب حاولت الانتحار وهذا عيب في تلك البلد الريفية، تحدثت مع أحد معارفي في الغربية ليوصلني برقم مدير مستشفى طنطا الجامعي، وبالفعل حصلت عليه، وتحدثت إليه وسألته عن حالة منى، فرد علي: حالتها غير مطمئنة.

- كيف حاولت الانتحار؟
- بحبوب الغلة.
- حبوب الغلة؟! قد سمعت عن عدة جرائم انتحار بسبب حبوب الغلة ولكن ما أعرفه أنها منعت من التداول في الأسواق بقرار سابق صدر عن وزارة الزراعة.
- نعم، ولكن الفلاحين متمسكون بها، وللأسف يرد إلينا الكثير من حالات الانتحار بها.
- وكيف حال منى الآن؟
- هي في غيبوبة الآن، ونحاول التعامل مع هذا الغاز السام، ولكن للأسف تلك الحبوب تتحول إلى غاز الفوسفين الذي يدمّر جميع أعضاء الجسم، وعادة يموت من يتناوله، الأمر بيد الله، وسنفعل كل ما بأيدينا.
- أدعو الله أن يوفقكم ويقويكم؛ لإنقاذ تلك الحالات.

كثفت بحثي عنها، وجدتها عبارة عن أقراص تُستخدم كمبيد حشري؛ للحفاظ على الغلال المختلفة من التسوس، وتتكون من فوسفيد الألمنيوم شديدة الخطورة، لا يوجد علاج أو ترياق مضاد له، ولتلك الحبوب تأثير مدمر على الإنسان عند لمسها أو استنشاقها أو تناولها، وتكمن خطورتها في كونها رخيصة الثمن وسهل الوصول إليها في المجتمع الريفي خاصة بين الأطفال والمراهقين، فهي قاتلة شديدة المفعول، لم ينج منها أحد؛ لأنها سريعة الانتشار في الجسم، وتتفاعل بمجرد دخولها المعدة مع المياه وعصارة المعدة ويسفر عنها غاز الفوسفين شديد السمية يتسبب في تلف في كل أجهزة الجسم ويسبب انخفاض ضغط الدم بالصدمة، وخفقان بالقلب، وارتفاع في السكر، والصدمة الحرارية، وانهيار القلب والأوعية الدموية، وضيق التنفس الحاد، والفشل الكلوي، وغيرها من الأعراض الحادة.

قررت إعداد تقرير عن تلك الحبوب القاتلة، وجدت أن الوثائق أثبتت أنه من 250 إلى 370 ألف شخص يموتون على مستوى العالم من تناول المبيدات، وأنها المسئولة الأولى عن ثلث حالات الانتحار في جميع أنحاء العالم في العام الماضي 2018، تحدثت مع المتخصصين الذي أجمعوا على ضرورة منعها؛ باعتبارها القاتل الصامت مع سهولة الحصول عليها، خاصة أن الولايات المتحدة الأمريكية حظرت تداول غاز الفوسفين أو منتجاته منذ بداية التسعينيات وصنّفته كغاز سام، وعلى الرغم من أنها تقتل

في صمت إلا أن المنتحر يشعر بآلام مبرحة؛ بسبب انطلاق الفوسفين الذي قد يفجّر المعدة، ويدمّر جميع أجهزة الجسم، ونصح الأطباء بإعطاء متناولها زيت البرافين أو زيت جوز الهند قبل نقلهم إلى المستشفى، أدركت أن تلك الطفلة تألمت بشدة حتى تتخلص من حياتها الأليمة، ولكنها لم تحل أزمة بل أشعلتها.

انتهيت من كتابة التقرير، وعدت إلى فيسبوك لأتابع أي جديد على صفحاته وجدت منشورات العزاء قد انتشرت، والبعض يترحم والبعض الآخر ينهي عن الترحم؛ لأنها ماتت منتحرة، وكأنهم نصّبوا أنفسهم آلهة ليحكموا عليها، فقد أصبحنا أمام جريمة مكتملة الأركان؛ فهي لم تنتحر بل قتلها كل هؤلاء الذين دفعوها لتلك الحالة النفسية القاسية على فتاة في هذا العمر، قتلها أهلها بمحاولتهم وأد أحلامها وطموحاتها، قتلتها تلك المعلمة التي لا تعرف شيئًا عن التربية لكي تهينها بتلك الطريقة، قتلها مدير المدرسة الذي قبل على أحد رعيته الظلم دون أن يتحرك لنجدتها، قتلها المجتمع المتنمر عليها، لقد قتلناها جميعًا؛ لأنها لم تجد يدًا رحيمة واحدة تمتد إليها لتدعمها، لم تجد كلمة طيبة تجبر خاطرها، لم تجد من يحنو عليها ويحتويها ويحميها من أنياب الغوغائين من البشر، لا بد أن نشن حملة ضخمة على آفات المجتمع التي تقتل الآلاف سنويًا دون دليل بيّن.

وكيف تركت وزارة التربية والتعليم تلك المعلمة تستخدم العنف مع الطلاب في هذا العمر الحساس؟ كيف أعطت الضوء الأخضر لمثل هؤلاء باستمرارهم في المهنة دون عقاب رادع من هذا العنف المدمر؟ لماذا لا تتابع المعلمين بشكل دوري حتى تطمئن على نفسية الطلاب؟ ألا تعرف تلك الوزارة أنها ترتكب أكبر جريمة في تاريخ البشرية بإخراجها أجيال مدمرة نفسية بسبب ممارسات أمثال هؤلاء المعلمين، حتى أضاعت هيبتهم، وتضرر المعلمون الأكفاء بسبب هيمنة من لا يستحق.

قطع تفكيري اتصال من عمر، وبرغم أنني كنت في انتظاره منذ أيام، ولكن لم أشعر بتلك الفرحة المترقبة، فقد امتلأ صدري بالحزن؛ لم يعد هناك براح لكي أسعد لمجرد اتصال جاء متأخرًا، رددت بضجر: مساء الخير.

- مساء النور، كيف حالك.
- بخير الحمد لله.
- ماذا بكِ؟
- لا شيء.
- أين اختفيتِ كل تلك الأيام؟
- لم يكن هناك ما يستدعي الحديث.
- يبدو أنك منشغلة.
- نعم بعض الشيء، سأحدثك لاحقًا.

أغلقت المكالمة وانهمرت دموعي مني عنوة، حاولت إيقافها حتى أخرج من المؤسسة إلى سيارتي وكانت رجلي قد عادت إلى التثاقل، ولكني عافرت حتى دخلت سيارتي، واستكملت بكائي وحدي، لقد حدثته حقًا بتذمر، ولكن لأنني قد فقدت الشغف بكل شيء، لم يعد لدي أمل في أي شيء، فقط أريد أن أعود إلى شقتي وأن أصرخ دون أن يسمعني أحد أو يراني، لقد عادت إليّ جميع الآلام التي كانت تلاحقني منذ ثلاث سنوات، وكأنني لم أتناول أي دواء، وعدت إلى وحدتي وألمي وعذابي.

كانت تلك هجمة قوية من هجمات هذا المرض اللعين، الألم ينتشر في جميع أنحاء جسدي، أشعر بغليان وانفجار داخل رأسي، لم يكن لدي رغبة في أي شيء سوى الخلود إلى النوم لساعات طويلة، انكسرت داخلي جميع المعاني الحياتية؛ فانتصر الإحباط والألم، حصلت على إجازة من العمل، وظللت أيامًا لا أرد على أي شخص سوى أبي وأمي اللذين يحدثاني كل يوم، حتى لا يشعرا بأي شيء ويصابا بالقلق في غربتهما.

7

اتصالات كثيرة وردتني من سارة، يبدو أنها قد قد قلقت عليّ؛ لأنني لم أرد عليها، بسبب انشغالي في غيابات أحزاني المتراكمة داخلي، مسكت هاتفي وجدت رسالة منها تقول: هبة، حدثيني ضروري هناك أمر عاجل، شعرت أنها بحاجة إليَّ؛ فهاتفتها، صوتها لم يكن مطمئنًا على الإطلاق، صوت نفسها المرتعش يعلو عن صوتها، ودقات قلبها المضطربة تصل أذني.

- طمئنيني عليكِ يا حبيبتي، أين كنت طوال تلك الفترة؟
- أنا بخير، أحمد الله على كل شيء.
- أودّ الحديث معك حول أمر غريب حدث لي ولا أعرف كيف أتعامل معه.
- خير يا حبيبتي.
- أنا ....

قاطعها صوت صراخ طفل على بعد مسافة قريبة منها، سألتها: من هذا الطفل؟

- أرجوكِ لو أمكن تأتي إليّ؛ أنا في أزمة لا أعرف كيف أحلها.
- حسنًا، سأرتدي ملابسي وأنزل حالًا، مسافة السكة.

بالفعل ارتديت ملابسي سريعًا واستقللت سيارتي، وتوجهت إلى القاهرة الجديدة، لا أعرف مَن هذا الطفل وكيف تورطت معه، لم يمض تسعة أشهر على آخر لقاء بيننا حتى تكون أنجبت، لم تكن حاملًا، وليس ذلك في خطتها الآن، اتفقت مع زوجها على تأجيل الحمل لمدة خمس سنوات على الأقل، وبرغم سعيي الدائم منذ زواجي إلى الإنجاب إلا إنني كنت أرى تفكيرهم أكثر منطقية وعملية، فحتى ننجب إنسانًا سويًا في هذا العالم لا بد أن تكون علاقتنا سوية ووصلت إلى درجة كافية من الاستقرار والنضج تؤهلنا إلى القدرة على تربية هذا الكائن الذي لا ذنب له بمشكلاتنا.

كنت أتعجل لمعرفة ماذا حدث ومن هذا الطفل؛ لقد سيطر عليّ فضولي الصحفي لمعرفة هذا السر الغامض، ربما يكون قد خانها محمود واكتشفت أنه أنجب من امرأة أخرى فأشفقت على الطفل وتبنته، في تلك الأيام انتشرت الخيانة بشكل غير محدود بين هذا العالم الذكوري، والإناث أيضًا مع الأسف. قيادة السيارة في شوارع القاهرة من أكثر العوامل المسببة للتوتر في الحياة، أظنها أحد أسباب الضغط على المواطنين، حتى المارة يستاءون من حركة السيارات العشوائية بالشوارع، والسرعات المتفاوتة غير القانونية، الدولة تقيم العديد من الطرق والكباري، وهذا أمر جيد، ولكن الأهم أن تكون بمواد جيدة وتخطيط هندسي متميز؛ فربما يحد من هذا

الازدحام المروري الخنيق.

وصلت أخيرًا إلى بيت سارة، طرقت الباب وأنا لا أزال أسمع صرخات هذا الطفل، فتحت لي الباب وهي تحمل طفلًا صغيرًا لم يتخط عمره أيامًا، وجهه البريء الجميل يجعل النظر إليه مريحًا، بشرته قمحية، شعره الصغير أملس ناعم، عندما تنظر إليه تجذبه تلقائيًا بين ذراعيك لتحتضنه، ربما هو بحاجة إلى ذلك؛ فهو يشعر بالحرمان، نظرت إلى سارة وسألتها: مَن هذا؟

- لقد وجدته اليوم جوار المنزل لا أعرف ماذا أفعل، لم يكن أمامي سواكِ لأسأله عن كيفية التصرف في ذلك.
- كيف وجدتيه جوار المنزل؟
- كنت عائدة من المستشفى، وجدت كرتونة على قارعة الطريق في محيط المنزل، ولكن سمعت صوتًا يخرج منها، ظننته في البداية قطة محبوسة، ذهبت لأجد هذا الصغير يبكي في غربته.
- هل أبلغت الشرطة؟
- لا.
- علينا تحرير محضر أولًا؛ ليتتبعوا من وضعه هنا، ربما يكون أحد المجرمين اختطفه من أمه ثم حاصرته الظروف، أو أحد يود الانتقام من أسرته.

- أو أمه.
- أعرف أنه الاحتمال الأقرب للواقع، ولكني لا أستطيع استيعاب ذلك، كيف لأم أن تترك ابنها الرضيع بتلك الطريقة؟
- لقد أصبحنا نرى أمورًا تشيب لها الولدان.
- للأسف هذا الواقع المحتوم الذي نحياه الآن، كل يوم تحدث جرائم أسرية نكراء يعجز القلب عن تصديقها.
- ماذا نفعل الآن؟
- هيا بنا إلى قسم الشرطة، أنا لا أعرف الطريق، هل يمكن أن تقودين أنتِ وأحمل أنا هذا الطفل؟
- حسنًا.

نزلنا معًا واستقللنا سيارتها، لم يكن طلبي بدافع عدم المعرفة كما ادعيت، ولكن لأنني كنت أرغب في ضم هذا الطفل إلى صدري، الشعور بالقرب من كائن بريء لم تدنسه الأيام ولم يحمل أي ضغائن يمنحك راحة نفسية جميلة، ربما لأنني سعيت كثيرًا حتى أحصل على هذا الإحساس، ولكن إرادة الله شاءت ألا أحصل عليه، كعادتها الدنيا تعطي من لا يستحق، وتنزع ممن يستحق، كنت أتمنى أن أصطحبه معي، ولكن ربما أمه كليلة مفجَعة الآن تبحث عنه بقلب متقطع.

وصلنا إلى قسم الشرطة وأدلت سارة بشهادتها كاملة ووصفت جميع ما رأته، وتحول الطفل إلى المستشفى ليطمئنوا على صحته؛ حتى يستطيعوا تفريغ الكاميرات في الشارع للتعرف على الشخص الذي وضعه، لحسن حظي أنه تحوَّل إلى المستشفى التي تعمل بها سارة؛ حتى أتمكن من رؤيته والاطمئنان عليه، قبل أن يعود إلى والدته إن كانت موجودة وضاع منها حقًا وليس من تخلت عنه.

انتبهت إلى صوت سارة: ما رأيك نعود لتناول الغداء؟

- أريد أن أذهب إلى المستشفى؟
- هل أنتِ بخير؟
- نعم، أريد الاطمئنان على هذا البريء.

تبسمت وهي تقول لي: يبدو أنكِ تعلقت به.

- إن كانت أمه لا تحتاجه وكنت في حالة نفسية وصحية جيدة لاصطحبته معي، ولكني أخشى عليه مني، فربما يتأثر بحالتي تلك وهو بلا ذنب.
- ما الذي أساء حالتك مرة أخرى بهذا الشكل؟ لقد لاحظت ثقل حركتك، وتشنج ملامح وجهك، ألم تتحسني مع الدكتور عمر؟

صمت قليلًا، قبل أن تستكمل كلامها بنبرة تعجب هادئة:

ما تلك اللمعة التي ألمحها في عينيك؟ أخبريني ماذا حدث؟

- لا شيء، تحسنت مع الدواء ولكن عاد إليّ الألم بعد انقطاعه فترة، وأيضًا لم أنتظم على تمارين اليوجا، فضلًا عن ضغوط العمل التي أساءت حالتي النفسية.
- أنا أسأل عن تلك اللمعة التي أراها في عينك، وعن تلك التنهيدة التي أشعر بها، ما الأمر؟ يبدو أنك قد وقعتِ به؟
- لا أعرف، انجذبت له بشكل غريب وغير منطقي، وتذمرت من هذا الشعور الذي انتباني دون سبب؛ فلم أعتد على مثل هذا.
- أظنه شعورًا متبادلًا.
- متبادل؟
- نعم.
- لماذا تقولين ذلك؟
- لأنه كان يسأل محمود عليكِ باستمرار واهتمام، وكنا نتحدث عن أن بكما صفات كثيرة مشتركة، ويمكن أن تربطكما قصة حب بسهولة؛ فأرواحكم متقاربة، ومن الصعب أن تلتقي روحًا تشبهك دون أن تغرمي بها.
- حقا، لقد شعرت فجأة بأن روحي تتعلق به، لا أعرف كيف أو متى أو لماذا، كل ما أعرفه أنه أصبح الشخص الوحيد الذي يتحكم في

حالتي النفسية، ولكن عندما بعد عني فترة وأحرجت أن أبادر أنا بالحديث انفعلت كثيرًا؛ لأنني كنت بحاجة شديدة إليه، عندما حدثني تعاملت بجدية معه وكأنني أعاقب نفسي على شعوري ذلك، رغم أنني على يقين أنه دوائي الوحيد.

- هذا الإحراج هو الذي يحطّم حياتنا، أنا أرى أن عليك أن تفعلي كل ما ترغبين به، هي الحياة لن نعيشها مرتين، فلماذا نضيع أوقاتنا في هواجس لا قيمة لها.
- هذا ما حدث، وربما ذلك ما أعاد إليّ الهجمة.
- تحدثي إليه بحجة تلك الهجمة، أظنه مبررًا قويًا إن كنت لا تريدين أن تظهري له مشاعرك.
- سأحاول، أوصليني إلى بيتك؛ لآخذ سيارتي وسأذهب إلى المستشفى للاطمئنان عليه؛ حتى أؤدي واجبي وأنشر الخبر لربما تبحث عنه أمه، فنسهّل العثور عليه.
- سأصطحبك إلى هناك.
- لا، أعرف أن لديك مهامًا ستفعلينها قبل عودة محمود، وأريد أن أكون على راحتي أكثر؛ حتى أستطيع الكتابة.

ذهبت إلى المستشفى وظللت أنظر كثيرًا إلى وجه الطفل وأتأمل حركاته الهادئة، وتجهم وجهه وكأنه يدرك ما يحدث له، فكرت في مستقبل هذا الطفل الغامض، هل سيجد والديه ويعيش حياة سوية؟ أم سيعيش حياة بائسة في دار رعاية لا نعرف كيف سيكون حظه مع المربّين بها؟ فهناك الدور المليئة بالفساد ويقتلون الأطفال معنويًا كل يوم بعدم الاهتمام والسعي وراء المعونات والتبرعات فحسب، وهناك أخرى تعمل بما يرضي الله؛ لتنشئ جيلًا سويًا، وفي الحالتين لن يعيش الطفل حياة سوية، حتمًا سيشعر باغتراب واختلاف عن قرنائه.

عدت إلى منزلي وكدت أن أنهار، فقد تكسرت مفاصل جسدي كله، ولا أستطيع التحمل، تناولت كوبًا من عصير الجوافة، ثم باسط عضلات لربما يريح جسدي، وتمددت على السرير لأسمع أصوات "طقطقة" في ظهري وألم غير محتمل، كيف يتأقلم المرضى مع تلك الآلام؟! فأنا لا أستطيع النوم من شدة الألم، ولا أستطيع التحرك بشكل طبيعي، تذكرت حديث سارة معى بشأن عمر، ولكن لست مستعدة الآن للحديث معه، سأحاول الاسترخاء لأنام؛ فالباسط يريحني بعض الشيء، وأحيانًا يمكّني من النوم.

لم تمض أكثر من ساعة حتى استفقت، خفت الآلام ولكنها لم تختفِ بعد، مسكت هاتفي وبدأت أبحث عن هذا المرض الغامض، وجدت

موضوعات كثيرة علمية عنه، ووجدت موضوعات صحفية عنه منذ عامين تحكي قصة الأميرتين اللتين أمسكتا بزمام مبادرة لإعلام الجميع بهذا المرض ومساندة أمثالهما ممن يعانون دون أن يشعر بهم أحد، وكانت إحداهما قد اكتشفت المرض صدفة بصفتها طبيبة بشرية وعرفت عنه من صديقتها المتخصصة بأمراض الروماتيزم؛ لأنه ليس هناك مرض يشمل تلك الأعراض غير المرتبطة ببعض سوى هذا المرض.

بحثت عن المرض على فيسبوك بعد أن عرفت أن إحداهما قد أنشأت ساحة مغلقة على موقع التواصل لجمع المرضى وتعريفهم بطبيعة المرض، وتبادل الخبرات، عثرت على عدة صفحات منها "فيبروميالجيا اللص الخفي" هذا الوصف دقيق؛ لأنه يسلب منك إرادتك وصحتك وطاقتك دون أي دليل بيّن؛ ما يؤدي إلى الدخول في حالة اكتئاب حاد لعدم شعور الآخرين بهم، تلك الصفحات والمجموعات تعد ملاذًا للمرضى لمساعدتهم على التعايش معه بمثابة جلسات الدعم النفسي؛ لتخفيف حدة الألم النفسي المصاحب للمرض، في ظل رفض المجتمع الاعتراف به؛ لأنه لا يظهر في التحاليل والأشعة، وبالتالي لا يمكن لهم أخذ إجازة من العمل في فترات الهجمات، ولا يمكن أن يؤخذ منه إعفاء من الجيش الذي يستلزم تمارين شاقة تدمر المرضى.

تجولت داخل تلك الصفحات لأطّلع على قصص هؤلاء المرضى الذين اكتشفت أنهم بالآلاف وليس حالات بسيطة كما كنت أظن، وهو ما يحفزني بصفتي صحفية لإجراء تحقيق شامل عنه لتعريف المجتمع به ومساندة المعانين منه، وجدت قصصًا عديدة ممتلئة بالآلام والأوجاع المزمنة، والجميع يبحث عن طرق التعايش مع المرض الذي ليس له دواء، كلٌ يسرد تجربته في التعايش مع نظام غذائي صحي، وممارسة الرياضات الخفيفة، والبعد عن التوتر والضغوط، والقرب من الله، ومساعدة الغير، وعمل الخير، وجبر الخواطر.

من بينهم الراضون بما ابتلاهم به الله، ومنهم من أصيب باكتئاب ومستسلم له، ومنهم من يتوجع في صمت، دون أن يشعر به المحيطون، ولكن الجميع يجمعهم جولة البحث عن مرضهم بين الأطباء الذين يتجاهلونه ويسرعون عادة في تشخيصهم بأنهم مرضى نفسيين، وكل ما يشعرون به مجرد توهم، يبدو أن كثيرًا من الأطباء ليس لديهم مهارة التشخيص، ومنهم من يتوقف علمه عند حد معين؛ فلا يطلع على المزيد من المعلومات والأمراض الحديثة التي يكتشفها العالم.

وجدت مقترحات بأسماء أطباء متخصصين بهذا المرض، وابتهجت عندما وجدت اسم عمر فريد من بينهم، والكثير يشيد به وبمركزه المتخصص في علاج الألم والدعم النفسي، مسكت هاتفي بلا تردد وتحدثت

إلى عمر: آسفة على الإزعاج، ولكني أتالم بشدة ولم أجد طريقة للتخفيف عني.

- لا تعتذري، تحدثي في أي وقت، بمَ تشعرين؟
- ألم في جميع جسدي، وكأن عظامي قد تكسرت وعضلاتي تشنجت، وتهاجمني أوجاع لا أحتملها.
- هل تمارسين اليوجا بانتظام كما اتفقنا؟
- لا، ولم أمارس حتى السير الفترة الماضية.
- لماذا؟
- كنت أعاني من اكتئاب يجعلني أرغب في العزلة طوال الوقت.
- لا بد أن تقاومي، وحدثيني في أي وقت لأساعدك.
- لقد توصلت إلى عدة صفحات ومجموعات على فيسبوك تجمع مرضى فيبروميالجيا، لم أكن أتوقع أنهم بهذا العدد، أظن تلك الطريقة التي تشبه جلسات الدعم النفسي.
- بالطبع مهمة، لقد أسست مركزًا لهذا النوع من العلاج منذ عودتي من ألمانيا، استغرقت وقتًا طويلًا حتى أقنع المرضى بأهمية تبادل التجارب مع أترابهم ممن يعانون من المرض نفسه، والآن يتوافد إليه المرضى بلا حساسية، ولكني أذهب يومًا واحدًا في الأسبوع؛ لأنه في

الإسكندرية، حتمًا ستأتين إليه يومًا ما، ولكني أنتظر أن تتخذي قرارك بالتعايش معه وعدم الاستسلام.

- أخبرني عندما تذهب إليه.
- ستأتين معي؟
- نعم.

أغلقت المكالمة والسعادة تغمرني، ربما أنستني الوجع الذي يتوحش داخل جسدي، لا أعرف ماذا فعل بي حتى يتحكم بهذا الشكل في أحاسيسي ومشاعري، حتى شعوري بالراحة من الألم، وأسعدني أنه محبوب بين المرضى، وجميع المتعاملين معه يمجدّون فيه ويحترمونه، وربما اطمأننت لذلك؛ فحب الله منحة لا تعطى لأي إنسان سوى أولئك الذين رضي عنهم، لقد بدأ يغمرني الشعور بالنوم، فهو شخص ممتلئ بالحب والحماس والدفء الذي ينتقل إليك ويغمرك بالسكينة والراحة غير الموجودة في هذا العالم.

كثيرًا ما أحتار في أمري هذا، روحي معلّقة برجل لا أعرفه، وأخاف أن يشعر بذلك؛ حتى لا يتفهمني بشكل خاطئ، فهو لا يعرفني جيدًا، ولكن كلام سارة شجعني أكثر لأن اتحدث إليه، وهي لا تعرف كم الجهد الذي أبذله مع ذاتي حتى لا أعترف له أنه أصبح الدواء الوحيد لدائي،

والهواء النقي الوحيد الذي أتنفسه، وواحة الأمان التي أرتاح فيها، والمسكن السحري الذي يزيل كل ما بداخلي من آلام دون سبب علمي أو منطقي، وحده الحب من يفعل ذلك، وإن كان ذلك هو الحب فأجزم أنني لم أحب من قبل.

8

ذهبت إلى المستشفى؛ لأرى ذلك الطفل المشرق الذي اختطف عقلي؛ لأطمئن عليه، لقد اشتقت إليه كثيرًا، اشتريت له لعبة مناسبة للرضع؛ ليشعر بالونس والاهتمام، أتمنى أن يكون بالفعل مخطوفًا من أمه وليست هي من تخلت عنه؛ فلا يمكن أن أتخيل أن تترك أم رضيعها الصغير يقاسي ويلات الحياة بمفرده دون مسكن أو طعام، حتى الحيوانات لا تستطيع فعل ذلك.

وصلت للمستشفى، وقبل دخولي الحضّانة سمعت حوار داخلي بين اثنتين يبدو أنهما ممرضتان في المستشفى.

- يا الله! هذا الطفل الذي ماتت والدته منذ يومين.
- كيف عرفتِ؟ لقد أودعته الشرطة بعد أن وجدوه بالشارع.
- كيف وجوده بالشارع؟ لقد حضرت ميلاده وكانت أمه تعاني من تسمم حمل واضطر الطبيب إلى الولادة القيصرية لإنقاذهما، ولكن إرادة الله قد شاءت.
- ومن استلمه من المستشفى؟
- والده استلمه، وكان في حالة انهيار تام.

- غريب هذا الأمر، يمكن أن يكون والده تركه في الشارع بعد وفاة والدته.

اقشعر بدني عندما سمعت ذلك، طفل يتيم اختار الله أمه وتركه أبوه دون أن يراهما أو ينهل من حنانهما، ربما ذلك جعلني أتعاطف معه أكثر، دخلت إليه ورأيته واطمأننت على حالته من الطبيب المتخصص، وأخبرني أنه على ما يرام، في تلك الحالة في الأغلب سيودعونه في دار رعاية، ويصبح هو ونصيبه، ولكني لن أتركه أينما ذهب.

ذهبت إلى سارة في قسم العلاج الطبيعي، إلا إنهم أخبروني أنها في إجازة عارضة اليوم لظروف لديها، تحدثت إليها في الهاتف، لمست شجن عميق في صوتها، فانتقلت إلى منزلها القريب من المستشفى، رأيت بعينيها حزن، سألتها: ماذا بكِ؟

- تفضلي أولًا.
- أقلقتيني عليكِ، ماذا بكِ؟
- مشاجرة عادية بيني وبين محمود.
- لا، حالتك تلك تؤكد أنها ليست مشاجرة عادية، احكِ لي ماذا حدث؟
- أنا حامل.

- خبر سعيد. مبارك عليك...

لم استكمل كلماتي حيث تذكرت أنهما متفقين على عدم الإنجاب حتى يستعدا نفسيًا وماديًا ومعنويًا لتلك الخطوة، سألتها: وماذا ستفعلون؟

- بمجرد معرفة محمود هذ الخبر انقلب وجهه وتعبس، فهو يظن أنني من قررت ذلك بمفردي، وفعلت بمحض إرادتي، ولكني حقًا لم أتخذ أي قرار، ولم أمتنع عن تناول حبوب منع الحمل، ولا أعرف ماذا أفعل؛ فأنا أيضًا غير مستعدة لتلك الخطوة ونحن نبني مستقبلنا.
- وإلامَ توصلتم في النهاية؟
- لم نتوصل إلى شيء، تركني وخرج.
- هل تناولتِ الفطور؟
- لا، ليس لي مزاج لذلك.
- نتناوله سويًا، سأعد لنا الفطور ونتحدث، لا بد أن تأكلي؛ حتى تستطيعي التفكير بشكل صحيح.

أعددت لنا الإفطار وعصيرًا لكي يغذيها، فيبدو أنني وحدي من فرحت بهذا الحدث المبهج.

- أرى أن الحل الوحيد في إسقاط هذا الجنين.

- هل تأكدتِ أولًا من الحمل؟
- نعم، لقد أجريت اختبارًا منزليًا وآخر معمليًا، وأظن أنني ما زلت في الشهر الأول، ويسهل فعل ذلك.
- لا أريد أن أفرض رأيي عليكِ، ولكن في رأيي دعيه؛ فهو إرادة الله التي نفذت، ولا يمكن لأحد تغييرها.
- لا أستطيع أن أتركه حتى يأتي إلى تلك الحياة البائسة ويتعذب كما تعذبنا، أنتِ أدرى منا بذلك.
- أعلم ما تقولين، ولكن الله سيكفله، وقد يتسبب لك هذا الأمر في أية مشكلة، وربما يكون هو الأمل في تغيير هذا الكون.
- أنا غير مستعدة لأن أكون أمًا، فأنا غير جديرة بذلك، ولن أستطيع تحمل مسئوليته وأتحمل وزر إهمالي له؛ فأنا أؤدي دوري في المستشفى ولم أستكمل واجباتي بالمنزل.
- ستنظمين وقتك، وأنتِ لا تزالين في البداية، دعي الله يفعل ما يشاء، ولا تتدخلي.
- حتى وإن اقتنعت كيف أقنع محمود؟!
- تحدثا معًا وتوصلا لاتفاق.

قاطع كلامنا اتصال هاتفي من والدتي، استأذنت سارة في الرد؛ لأنها تقلق عليّ إن تأخرت.

- أمي الحبيبة، صباح الخير.
- أين أنتِ يا هبة؟
- أنا عند صديقتي سارة، ماذا حدث؟
- أنتِ بخير؟
- نعم.
- لماذا لم تخبريني بما حدث؟
- ماذا تقصدين؟
- طلاقك من هيثم، هل اعتدتِ الكتمان عني وعن والدك؟
- لا أبدا يا أمي، ولكن خشيت ان أقلقكما. مَن أخبرك؟
- هو نفسه حدثه والدك ليطمئن عليكما، فعلم، وكان يظن أنك أخبرتينا، ولكن كيف لا تخبرينا بقرارك الانفصال عنه؟
- قراري؟! لا يا أمي أنا لم أختر هو اختار بنفسه ومفرده ونفذ ذلك غيابيًا.
- غيابيًا؟ لماذا؟
- لا أعرف، ولا يهمني أن أعرف الآن.
- لقد أخبرنا أن هذا حدث بناءً على رغبت، سأجعل أباك يحادثه. كيف يفعل ذلك وهو يعلم أنك وحيدة في غيابنا؟!
- لا تجعليه يفعل ذلك؛ سيفهم أنني أريد الرجوع.

- ولماذا لا؟ حتى نطمئن عليك.
- تطمئني عليّ مع شخص غدر بي وطلقني غيابيًا وتزوج بأخرى.
- تزوج! وكيف لا نكون جوارك في هذا الحدث؟
- صدقيني أنا بخير، ولا أريد أن أتحدث عنه؛ فهو صفحة انقلبت من حياتي.
- لا يمكن أن أطمئن عليكِ وحدك، ووالدك قرر أن يرسل إليكِ؛ لتأتي تقيمين معنا، لا يجب أن تظلي مفردك.
- أرجوكِ يا أمي، دعيني أتخطى تلك المرحلة وحدي؛ فأنا كنت أعتمد عليكما في كل شيء، وعندما واجهت الحياة بمفردي هزمتني، فدعيني أنتصر عليها بمفردي وأسترد نفسي.
- وأين تقيمين الآن؟ اذهبي إلى شقتنا.
- سأظل في شقتي، فهي حقي الوحيد الذي تركه لي، ولن أتركه.
- حقك بالطبع يا بنيتي، ولكن ستحاصرك الذكريات لتوجعك.
- على العكس يا أمي؛ فأنا لا يمكن أن أتخطى تلك المرحلة بالهروب، عليّ أن أفعل ذلك وأنا بالمكان نفسه، والحمد لله لقد تخطيت مرحلة الذكريات، فأنا الآن أرى الصورة أفضل.
- سأتناقش مع أبيك إما أن نعود إليك أو تأتين أنتِ.
- أرجوكِ أمي مرة ثانية لا تفرضي عليّ أمرًا يؤذيني.

- وجودنا معك يؤذيكِ؟
- لا أقصد يا أمي، معذرة.
- سنتفق ونحادثك.

تجهمت بعد تلك المحادثة، فشعرت سارة وسألتني: يبدو أنهما علما بطلاقك؟

- نعم، كنت أريد ألا يعرفا؛ حتى لا يمارسان تحكمهما بي، تعلمين: أنا أشعر أنهما سبب الجزء الهش في شخصيتي؛ فقد كانا يقفان جواري في كل شيء، لم يتركاني أتخذ قرارًا أو أتخطى أمرًا بمفردي، حتى هيثم أقنعوني أنه شخص مناسب وواجهة اجتماعية وسيحميني، وكأنه واحة الأمان، وانجرفت مشاعري تجاهه بسبب كلامهما أكثر من شخصيته وروحه، حتى وقعت في هذا الجحر، وعندما سافرا بعد أن اطمأنا عليّ- كما زعموا في ذلك الوقت- اتخذت من هيثم حصنًا منيعًا لي بدلًا منهما، واعتمدت عليه ووثقت فيه، لدرجة أنني كنت أتأثر بكل ما يقول حتى إن كان مخطئًا، الآن أراه سبب هذا المرض المزمن الذي أعيش ويلاته كل لحظة.
- بخصوص المرض أخبريني كيف حالك الآن؟ وهل تحدثتِ إلى عمر؟

تبسمت وقلت لها: نعم، لقد شجعتيني على ذلك وفعلت، حتى الشخص الوحيد الذي اخترته بنفسي وأرغب فيه أريد أن يدفعني إليه أحد.

- المهم أن تصلي إلى ما تريدين.
- لا أعرف حقًا ماذا أفعل، هل أنا على صواب أم خطأ؟ لقد بدأ يتوغل داخل جميع ذرات جسدي دون أن أشعر، وأخشى أن أكون واهمة وأصدم بعد ذلك بالواقع.
- ما الواقع الذي تخافين منه؟
- أن يكون متزوجًا مثلًا أو مرتبطًا.
- لا ليس متزوجًا، ولكنه تزوج من قبل مرتين.
- مرتين!
- نعم، ولكنه طلقها.
- ألا تعرفين السبب؟
- للأسف لا، لقد أخبرني محمود عندما ذهبت إليه، وكان يتوقع أن يحدث بينكما انجذاب؛ لأن شخصيتكما تجمعها بعض الصفات النادرة التي يصعب أن تتجمع مرة أخرى، فكيف لا يحدث تآلف بينكما.
- ولكن ربما يكون مرتبطًا بامرأة أخرى ولم يخبر أحدًا.
- ربما، ولكن كيف سنعرف ذلك دون الاقتراب منه؟

- أخشى من الفشل.
- خوضي التجربة أيًا كانت؛ حتى لا تشعري بالندم بعد ذلك.
- دعينا في موضوعك الآن، ماذا ستفعلين؟
- لا أعرف، سأنتظر محمود.
- حسنًا، سأغيب عنك نصف ساعة وأعود لك.
- أين ستذهبين؟
- قسم الشرطة، لأعرف تطورات القضية.
- أراكِ مهتمة بهذا الطفل.
- قضية مهمة لا يمكن أن نتغافل عنها؛ فهذا الطفل يتشكل منه أطفال الملاجئ ودور الرعاية، وأيضًا أطفال الشوارع والمتسولون.
- لا تتأخري عني.
- سأعود إليك سريعًا، ولا تحضرين الغداء؛ سأحضره في طريقي، عليك بالراحة.

ذهبت إلى قسم الشرطة ولم يكن في مخيلتي أن تحدث تلك المفاجأة التي أصابتني بالنفور، وأشعرتني بأنني أصبحت في تحسن كبير، لقد رأيت هيثم خارجًا من باب القسم، نظر إليّ بتمعن وكأنه لم يرني منذ سنوات، تعمدت أن أفرد ظهري جيدًا وأقف في صمود لأظهر ثقتي بنفسي وثباتي، ولم يكن

ذلك مخالفًا لما بداخلي، فقد كنت حقًا شديدة الثبات، ولم يتحرك أي شعور داخلي تجاهه، تقرب مني ومدّ إليّ يده بالسلام، ترددت قليلًا قبل أن أسلّم عليه، قالي لي: هل أنتِ بخير؟

ررفعت رأسي ورددت في ثبات: في أفضل حال.

- إن أحتجتِ أي شيء حادثيني فورًا دون تردد.
- لا أظن أنني سأحتاج منك أي شيء مطلقًا.
- يبدو أنك لا تزالين غاضبة مني، أتمنى أن تسامحيني على ما فعلت فقد حملت مسولية أسرة وابن لا يمكن أن أتخلى عنه، وكنت في صراع بسبب ضغوطك النفسية عليّ لم أستطع مواجهتك.
- أرجوك دعنا من كل ذلك، فلا داعي له.
- إذن سامحتيني؟
- لا تحتاج مسامحتي، فقصتنا أصبحت بالنسبة لي عدم مثلك.

تبسمت له واستأذنت بالانصراف ومضيت في طريقي بثبات إلى داخل قسم الشرطة، ربما لم يستغرق هذا اللقاء بضع دقائق ولكنه أحدث نصرًا عظيمًا داخل وجداني، شعرت أنني استرددت كرامتي، وسعدت لأنني لم أعد أشعر به حقًا كأنه لم يكن، فالوجع يقتل المشاعر ويجعلنا نرى الأمور

على حقيقتها، دخلت إلى ضابط المباحث وأخبرته بما عرفته بالمستشفى، وسألته إن كانوا توصلوا لمن رمى الطفل تلك الرمية المؤسفة شريدًا في مهب الدنيا القاسية، وافق على مشاهدتي الفيديو المسجل بالشارع الذي وجدته فيه سارة، كان رجلًا عجوزًا ذا شعر خفيف أبيض، وعينين غائرتين، ولم يبدو على وجهه أي ملامح مميزة أو أي انفعال، يحاول السير بكل عزمه، ولكنه غير قادر، فتركه على قارعة الطريق، واستكمل طريقه.

- غريب هذا الأمر، من هذا الرجل؟ بالتأكيد ليس والده، والممرضة بالمستشفى قالت إن أباه هو الذي استلمه.
- مازلنا نجري التحريات، ولكن سنصل إليه، وبإمكانك أن تساعدينا بنشر هذا الفيديو؛ لنتعرف -أسرع- على هويته.
- حسنًا، سأفعل بالطبع.
- نشكرك على التعاون معنا.

عدت إلى سارة بعد أن أحضرت الغداء الذي تحبه، من وجبات الـ"سي فود"، وعندما صعدت وجدتها تبكي بشدة: حبيبتي ماذا بكِ؟

- تحدثت إلى محمود، ولكنه عنّفني واتهمني بمخادعته، ولم يترك لي فرصة في الكلام، وأخبرني أنه لن يعود إلى البيت اليوم، فهو لا يستطيع أن يتحدث معي، أو يعرف كيف يفكر.

- عذرًا حبيبتي، فأنتِ تعلمين شدة تحسسه من تلك المسألة، ومفاجأة بأن هذا الأمر أصبح واقعًا أعاقه عن التفكير، ولكن عندما يهدأ سيعود إلى رشده، وسيعود إليك.
- هو أيضًا يعرف موقفي من هذا الأمر، وكان يجب أن يقف جواري في هذا الظرف؛ فأنا أكثر تأذيًا منه، هو لم يشعر بي وأنا في أشد الحاجة إليه، أول مرة أراه نذلًا منذ زواجنا، فقد كنت أحسد نفسي عليه.
- هو ليس نذلًا، هو فقط لم يستوعب ما حدث، خوفه تغلب عليه، لذلك أؤكد لكِ أنه سيعود ويعتذر لك عما حدث.
- لم أعد أثق في أي شيء، هو يتركني أحدد مصيري وحدي، فلنفترض أنني قررت الإجهاض أليس من الطبيعي أن يكون جواري وأنا أعرض نفسي للخطر من أجله؟!
- لا تعرضي نفسك للخطر، رأيي اتركيها لله يمكن أن يخلصك منه دون تدخل إن كان في ذلك خير لك، أو يتركه ليفاجئك بخير لم تتوقعيه.
- لا أعرف كيف اتصرف، أخشى من الوحدة، خاصة بعد أن تركني هكذا، كأنه سلب مني الأمان فجأة ورحل.
- لا تقلقي، سأظل معك اليوم، لن أتركك، أوقفي التفكير الآن ودعينا نتناول الغداء.

ظللت معها حتى نامت جواري، واستيقظت صباحًا على اتصال هاتفي من ضابط القسم يخبرني بأنهم توصلوا لحيثيات إلقاء الطفل في الشارع، أيقظت سارة وطلبت منها الاستعداد للذهاب إلى المستشفى، لا بد أن تنشغل بعملها؛ حتى لا تترك نفسها بين براثن التفكير، وبالفعل أوصلتها إلى المستشفى واطمأننت على طفلي الحبيب هذا، واصطحبت سارة معي ربما تحن إلى مثله؛ فوجهه الصافي يشعرك بالتفاؤل ويمنحك الأمل، ثم ذهبت إلى القسم.

كان ما توصلت إليه التحريات أمر غريب غير متوقع، لم تلقه أمه؛ لأنه جاء نتيجة خطأ كما هو معتاد في تلك القضايا، ولم يلقه أبوه الذي خرج معه إلى المستشفى، ولم يلقه أحد الخاطفين من عصابات تجار البشر الذين يتجارون بهم سواء ماديًا ببيع الأعضاء والمشاركة في تجارب "سريرية" محرمة قانونًا، أو تحريضهم على السرقة وتسريحهم للتسول، ودفعهم نحو مختلف أنواع التشرد، وإنما جاءت قصته غير كل ذلك.

خرج أبوه من المستشفى، وليس لديه أي أمل في تلك الحياة؛ فقد ماتت زوجته التي كانت حب حياته، وعافر مع أهله من أجل الزواج منها، واستمر معها طوال عشر سنوات دون أن تحمل أو تنجب لغير سبب طبي، حتى أمر الله أن تحمل منه زوجته بعد طوال تلك السنوات العجاف، وأحس بفرحة عارمة لم يشعر بها من قبل، حتى تعبت زوجته في الشهر

الثامن، نقلها إلى المستشفى وظل يدعو لها باكيًا أمام غرفة العمليات على الرغم من أن الأطباء أخبروه بضعف نسبة خروجها سليمة، ولكنه ظل متشبثًا بالأمل حتى أخبروه بوفاتها، انهار بشكل تام، لذلك تذكرته بسهولة تلك الممرضة التي كانت معها في غرفة العمليات، وخرج من باب المستشفى باكيًا واستقل سيارته وفتح نوافذها حتى يلتقط أنفاسه، وتحرك بها حتى وصل إلى طريق الصحراء، فاختل توازنه ولم يستطع القيادة، فتخبطت السيارة حتى توقفت بعد الاصطدام بشجرة، لاحظ ذلك رجل عجوز كان يسير هائمًا على وجهه، فتحسس نبض الرجل فوجد أن قضاء الله قد نفذ، ووجد الطفل جواره فحمله وظل يبحث عن كرتونة بطريقه ليدفئه بها، ووضعه عند أول طريق سكني؛ حتى ينقذه أي شخص مار، فعناية الله هي من أنقذت هذا الطفل البريء من الموت المحقق في بداية الصحراء.

سبحان الله! أحيانا نرى الأفعال بظاهرها جريمة وفي باطنها رحمة، علينا أن نتعلم ألا نحكم على الأشياء بالظاهر، وإنما بعد تحري الحقيقة من جميع الزوايا؛ فهذا الرجل أنقذ روحًا كانت قد تظل في الصحراء لأيام حتى يعثروا عليه، ما زلنا نحتاج إلى المزيد من الصبر والحكمة حتى نتقبل الأمور التي لا نستطيع فهمها، ولا نتسرع في الحكم على الغير.

ظللت أتابع التحقيقات وأنا ما زلت عند سارة أحاول طمأنتها وقد أصبحت أكثر ثباتًا وقررت الاحتفاظ بهذا الطفل حتى ترى حكمة الله في ذلك حتى إن كان المصير هو الطلاق، فستكتفي بالعيش مع ابنها القادم. عرفت من التحقيقات أن أجداد الطفل الشريد متوفون، وعمه رفض استلامه، وقررت النيابة إيداعه في إحدى دور الرعاية، لا أعلم كيف لشخص التبرؤ من نسل أخيه، ولكل إنسان ظروفه الخاصة، وقررت أنا الالتزام بموعد لزيارته بشكل دائم؛ حتى أطمئن عليه وأحاول تخليصه من أي أذى قد يتعرض له في أي وقت.

9

لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا أمكث محدّقة النظر في صورته الجديدة التي وضعها حديثًا على حسابه على "واتس آب"، فقد كان شاردًا منغمرًا في التفكير، وكأنه في عالم آخر بعيد عن موقع التقاط الصورة، عيناه تسطع كشمس الشتاء التي تدفئك دون أن تضرك فتطمئن بها وتود لو تظل مشرقة لا تغرب عنك أبدًا، هكذا كنت أنا أمام عينيه الشاردة المضيئة الجذّابة، أتشبث بتلك اللمعة الساحرة التي تمنحني البهجة وتوهبني الأمان دون سبب؛ فقد سلب مني إرادتي، لم أعد أتمكن من السيطرة على مشاعري تلك الغريبة.

ظللت متحيّرة لا أعرف ماذا يمكن أن أفعل ليريح قلبي، هل يمكنني أن أعلق على صورته وأبدي إعجابي بها؟ أم ربما سينفر مني ويمتنع عن الرد فتسوء حالتي؟، يجب أن أحسم القرار أولًا مع نفسي، وأن أعيش التجربة كما نصحتني سارة، وأرسل إليه إن رغبت ذلك في أي وقت دون انتظار أي رد منه، أرسلت له غنوة "عاشق سارح في الملكوت" فهي تشبهه كثيرًا؛ فهو لا يحب القيود، ويعشق الحرية والتحرر، وجدت اتصالًا هاتفيًا منه بعد دقائق: صباح الخير.

- صباح النور، كنت أريد إخبارك بموعدي للسفر إلى الإسكندرية إن أردتِ الذهاب معي، لتتعرفي على مركز العلاج هناك، وسيحسّن صحتك بنسبة كبيرة بإذن الله.
- قلت لك من قبل إنني أؤمن بقدرتك على مداواتي، سأفعل كل ما تريده.
- اتفقنا، سأغادر غدًا في الصباح، هل مناسب لكِ؟
- بتلك السرعة؟
- الحياة لحظة فاغتنميها، ويمكنني تأجيله إن لم يكن يناسبك؛ فأنا أيضًا أود مرافقتك.
- لا تؤجل شيئًا، سآتي معك.

أغلقت الهاتف وروحي تكاد تطير من فرط سعادتي كأنها قد بُعثت من جديد، سأحضّر حقيبتي وأجهّز نفسي للسفر، لم تكن فرحتي هذه بسبب حصولي على العلاج الذي قد يحسّن من حالتي الصحية، ولكن لأنني سأرافقه، سأرافقه فحسب وهذا يكفيني لكي أشعر بكل أنواع الراحة، راحة جسدي وعقلي وروحي، نهضت لكي أضع قليلًا من مستحضرات التجميل والعناية بالبشرة، فقد بدأت أهتم بشكلي وجمالي؛ لأظهر أكثر ثقة في نفسي.

استيقظت منتعشة في هذا اليوم المبهج لأنه سيكون معي؛ فلأول مرة لا أهاب السفر ولا أقلق منه، ركبت معه سيارته السوداء الوقورة مثله، ولأول مرة أيضًا لم أشعر بالمطبات الصناعية على الطريق، لم أشعر بأي شيء مزعج، أشعر فقط براحة عمياء؛ فعيني لا ترى أي قبيح، وأذني لا تسمع أي ضوضاء، الآن أستطيع أن أتنفس بعمق دون أي معاناة.

تحدثنا طيلة الطريق عن حياته، والصدمات التي تعرض لها، وكيف أثرت فيه، وسفره، وهواياته، وطبيعة عمله، وجدته محبًا للتغيير، عاشقًا لتجربة كل ما هو جديد، مفعمًا بالنشاط والحيوية، يكره الروتين، تأكدت أنني أسير على الطريق الصحيح؛ فهو مثلي محب للحياة، عاشق للطبيعة، وفي الوقت نفسه يتأهب للموت في أية لحظة، شعرت أنني كنت أدفن نفسي حية خلال الثلاث سنوات الماضية، حتى تأقلمت على الملل، وظننت أن ذلك أمرًا طبيعيًا.

سألني هو عن عائلتي وطبيعة عملي، وقصصت عليه حكاية طلاقي المفاجئ، وآخر الحوادث التي كنت أتابعها، وكيف أثرت عليّ وأدخلتني في حالة اكتئاب، نصحني أن أغيّر تخصصي، وأبعد عن الحوادث ما دامت تؤثر على نفسيتي بهذا الشكل، ويمكنني العمل بالمجال الإنساني مادمت أحب ذلك، أو أي مجال آخر أقل ضغطًا، أخبرته أنني سأفكر في هذا الموضوع ولكني كنت مقتنعة به.

لم يتوقف عند ما حكيته له عن طلاقي، ولم يسأل عن تفاصيل أية خلافات، ولكنه ظل يدعمني في عملي وحياتي، ويحثني على التفكير في المستقبل، وكيف أتعايش مع مرضي حتى لا أشعر بالألم، تمكّن من إمدادي بطاقة إيجابية هائلة ربما لم تجتاحني من قبل.

وصلنا إلى حي المنتزة بهوائه العليل وسمائه المصافية وجوه المبهج، اقتربنا من مركزه الذي يحمل اسم "الواحة"، يشبه الفندق من الخارج، سألته: لماذا الواحة؟

- لأنك ستنفصلين بها تمامًا عن الخارج، ستجدين نفسك وسط الطبيعة الخلابة، والحياة الخالية من الضغوط.
- أظنها فكرة رائعة، أحيانًا كنت أفكر في مثل ذلك الحل؛ لكي نفصل أنفسنا عن متاعب الحياة وضغوطها كل فترة.
- بالفعل، أمر مفيد للغاية حتى لغير المرضى، أن يستنشقوا جمال الطبيعة الصافية، ويفصلوا أنفسهم عن العالم؛ حتى يستطيعوا الاستكمال فيه مرة أخرى، ولكن هذا المركز ليس للفصل فقط بل للعلاج.
- سنرى.

كنت أود أن أقول له إنه واحة الأمان بالنسبة لي، يكفيني النظر في عينيه لدقائق حتى أشعر بالراحة، هو شخص مثالي، ليس فقط لأنه يجتذبني بشدة، ولأن لمعة عينه تغتالني في كل مرة أراها، ولكن لأن شخصيته أيضًا متميزة فقد اختار مجالًا فريدًا يستشعر منه آلام البشر، وليس تخصصًا تقليديًا كغيره، وما قصه عن حياته أيضًا يؤكد أنه مختلف.

دخلنا إلى الواحة، مساحات واسعة من الخضرة تتخللها الزهور، التي تداعبها نسمات الهواء العليل، وتحتضنها السماء الصافية، في منتصف الواحة مبانٍ مصممة على التراث الأوروبي، أمامها حمام سباحة ممتلئ بالمياه النقية، حركت تلك المشاهد مشاعر البهجة داخلي، اكتملت سعادتي بمعاملة عمر شديدة اللطف معي، وأسلوبه المتحضر الراقي، فهو يحترم الأنثى عامة، رأيت معاملته مع الموظفين هناك، وجدته شخصًا ودودًا يتعامل معهم برقي وأدب شديد، لا يشعرهم مطلقًا أنهم يعملون تحت يديه، قلت له: أعجبتني طريقتك معهم.

- هم فريق عملي، وينسب لهم أي نجاح، وأي تأثير نفسي سيء عليهم سيعرضنا للفشل، وأنا لا أحب تلك الكلمة.

علمت تلك اللحظة أن اختياري كان صحيحًا، ومشاعري لم تخنِّي؛ فهو رجل صادق، ليس أنانيًا كأغلب البشر في هذا الزمان، يفكر جيدًا،

ويخطط جيدًا، وينفذ بإتقان واحترافية، هكذا عرفت شخصيته من هذا المركز الواسع المنتشر فيه المساحات الخضراء، وحمامات السباحة، المفعم بالأمل والتفاؤل.

دخلنا إلى منطقة خضراء تحيط بها زهور البنفسج المنعشة، موجود بها مقاعد على شكل حلقات، يجلس عليها بعض النساء في سكون، اقتربنا منهن، وألقى عليهن السلام، وسلّم عليهن باليد واحدة واحدة، رأيت في عينيهن ابتهاجًا بوجوده ولكن لم يضايقني ذلك، بل شعرت بسعادة؛ لأن ما رأته عيني به تراه أعينهن أيضًا، ولكن رؤيتهن بالتاكيد مسببة؛ لأنه إنسان ناجح استطاع أن يزيح عنهم آلامهن التي عجز عنها زملاؤه.

جلست معهن لأستمع إلى أنغام الموسيقى، وطلب منا عمر أن نحكي قصصنا مع هذا المرض، وعرضت عليهن أن أسجّل روايتهن لأنشرها صحفيًا، من دون أسماء -إن أردن- حتى يعرف الجميع معاناتنا الخفية، وبالفعل وافقن، ومنهن من وافقن على التصوير فيديو.

أنا ماجي، 37 عامًا، أفقدني هذا المرض كل شيء: عملي بصفتي طبيبة نساء، وأسرتي، حتى نفسي، لم أعد كما كنت، أصبحت أشعر بضغط شديد طوال الوقت، لم أعد أستطيع التمتع بالحياة، حتى أهلي الذين أعيش معهم الآن لم يتفهموا مرضي، وظنوني مريضة نفسيًا، ربما ساعدتني طبيعة عملي في

الوصول إلى طبيعة المرض، وقرأت في الموضوعات العلمية قبل أن أتابع مع دكتور عمر الذي ساعدني في تخطي الألم النفسي على الأقل بتمارين اليوجا وجلسات المساج، وتلك الجلسات أشعرتني أنني لست وحدي، وبعد ذلك بدأت أنظر إلى الجانب المشرق من المرض، فعلى الرغم من أنه مزمن إلا إنه بلا مضاعفات، ولا يشوّه الأعضاء كغيره من الأمراض، هو فقط عبارة عن ألم متضخم نستطيع التعايش معه باليوجا، والتغذية الصحية، والسباحة، والمشي، والابتعاد عن الضغوط الحياتية.

أنا هند، 27 سنة، متزوجة منذ عامين، زوجي عصبي، صوته العالي كان يسبب لي وجعًا وصداعًا غير محتمل، لم يكن معترفًا بمرضي حتى عثرنا على دكتور عمر وأقنعه أنني حقًا مريضة وأحتاج إلى جلسات العلاج، ربما تفهمه طبيعة مرضي ساعدني كثيرًا، وهذه أول مرة أحضر إلى هنا، وأتمنى أن أشعر بتحسن حقيقي.

أنا مي، 38 سنة، أرملة ولدي ثلاثة أبناء، زوجي توفى منذ ستة أعوام وترك لي المسئولية وحدي، شعرت بآلام عديدة ولم تكن عندي الرفاهية للتنقل بين الأطباء، ففضلت تحملها بمفردي، ولكن اختلت قوتي، وبالصدفة شاهدت طبيبًا متخصصًا يصف المرض في برنامج تليفزيوني؛

فشعرت كأنه يتحدث عني، ويصف ما بي ولا يشعر به غيري، فقررت الذهاب إليه، كان هو دكتور عمر، وبالفعل شخصّني فيبروميالجيا، وبدأت العلاج وتحسنت حالتي بشكل كبير، وبعد التوقف عادت مرة أخرى، بدأت جلسات التدليك، والمشي قدر المستطاع، وربما ساعدني ذلك كثيرًا.

أنا هدى، 41 عامًا، تعبت منذ تسع سنوات، كنت ألف بين الأطباء في جميع التخصصات المتعلقة بالمرض: روماتيزم، ومفاصل، وعظام، وأمراض دم، ومخ وأعصاب دون جدوى، كان كل طبيب يطلب مني تحاليل وعندما تظهر سليمة يتمتم بكلمات تعني أنني أتدلع، لا أعرف كيف في هذه السن ولي ابنة تتزوج، والبعض قال إنني أعاني مشكلات نفسية، وبالفعل ذهبت إلى طبيب أمراض نفسية، وأيضًا بلا جدوى، وبات الجميع ينظر إليّ بعين المقصّرة، حتى أولادي يغضبون مني؛ لأنني لا أستطيع التحدث معهم، والاستماع إليهم وحل مشكلاتهم، ينتابني النسيان والتشتت، حتى سمعت عن هذا المرض بالصدفة في إحدى مجموعات فيسبوك، وسألت عن طبيب متخصص فوصلت إلى هنا، وشخصّني دكتور عمر، وتلك أول جلسة لي، فلا أعرف كيف ستكون النتيجة، ولكن مجرد معرفتي بطبيعة مرضي أراحني بعض الشيء؛ فقد تيقنت أنني غير موهومة، وأنه بالفعل هناك مرض، وليس مجرد دلع كما يدّعون.

- شرف لي أن تأتي إليّ، بإذن الله ستشعرين بتحسن عن قريب.

أظن أنني أصغركن سنًا، أنا هايدي، لدي 18 عامًا، في الصف الأول بكلية الهندسة، بدأت أشعر بتلك الآلام المنتشرة بجسدي منذ أربع سنوات عندما توفى والدي، كان جسدي يتخشب، وكنت أشعر كأنني قد شللت، ثم بعدها أعود لطبيعتي نسبيًا، وتقل الآلام، بعدها كان جسدي يقشعر لمجرد ملامسة أحد لي، لا أتحمل أي لمسة، أشعر بكهرباء تهزّني، أطرافي أصبحت ترتعش، وفجأة أفقد السيطرة على الأشياء التي أحملها بيدي، أخشى أن أركب مواصلات؛ حتى لا تتخشب رجلي عند النزول، أخشى أن أحمل أدواتي الهندسية؛ حتى لا تنفلت من بين يدي في أية لحظة، أخشى أن أجرى وسط قرنائي، أصبحت أخشى حتى من مرافقة زملائي؛ حتى لا يشعروني أن حركتي ترتعش فجأة، وخطاي أبطأ منهم، عندما رويت على عمي طبيب عظام طلب مني تحاليل، ثم أرشدني إلى دكتور عمر.

- أنتِ بدأتِ في اليوجا والمشي، هل تشعرين بتحسن؟
- نعم، ساعدني المشي كثيرًا؛ فهو يمنع التيبس من ساقي، واليوجا تريح عضلات جسدي، ولكن عقلي لا يتوقف عن التفكير.
- مهملًا يا عزيزتي، التعايش يجب أن يكون أسلوب حياة كامل.

أنا نهال، 31 عامًا، أعمل طبيبة نفسية، أصبت في حادث سير منذ عامين وحدث لي كسر في ذراعي الأيمن، وبعد علاج امتد على مدار ستة أشهر، بدأت تلك الأعراض تتزايد معي، وأشعر بآلام كالرصاص تخترق جميع أنحاء جسدي، ولكني قاومت، وآثرت الاستكمال في عملي، خاصة أن جميع التحاليل تظهر أنني سليمة، كنت لا أشعر بأي ألم وأنا أعالج مرضاي وأستمع لمشكلاتهم ومعانتهم، بالعكس كان يحسّن ذلك من نفسيتي كثيرًا، حتى أنتهي من عملي تبدأ الآلام، كانت بالطبع هناك ضغوط تلاحقني من أسرتي؛ لتأخري عن الزواج واعتبار ذلك خطأ في، ولكن لم أكترث كثيرًا لكلماتهم الموجعة، حتى أنني خشيت أن أخبرهم بآلامي تلك؛ حتى لا يصنفوني بأنني مريضة نفسية، فهم لم يكونوا مرتاحين لطبيعة عملي، ظللت أبحث عن تلك الآلام المتشردة بين أنحاء جسدي، حتى توصلت إلى هذا المرض الغامض، لم أتوقف عند ذلك بل بحثت وقرأت وسألت زملائي حتى توصلت إلى دكتور عمر، منذ أول لقاء وهو أرشدني إلى نقطة العلاج في أنني أرتاح عندما أفعل ما أحب، عندما أحاول حل مشكلات غيري، اقترح عليّ أن أتوسع في ذلك، وأن أحب نفسي أولًا؛ حتى أحب جميع من حولي لأرى الحياة مختلفة، وحتى أحب ذاتي كان عليّ أن أهتم بها، بأكل صحي، وتمارين اليوجا التي تحسن مزاجي وتفصلني عن أية ضغوط واقعية، بعدها بدأت أنظر إلى من حولي نظرة أخرى، وبالفعل رأيت إنسانًا

قريبًا مني جدًا لم أكن أراه في ظل ضغوط العمل وآلام المرض، شعرت بروحي تبعث من جديد، وآلامي بدأت تتهمش، لا أقول إنها انتهت تمامًا، ولكني أصبحت أكثر قدرة على المقاومة والتعايش، فكأن الرصاص قد انتزع من جسدي وأصبح بإمكاني استرداد صحتي. إنه الحب الساحر الذي يقتحمك بلا استئذان، ويغزو قلبك بلا معارك، يزيل آلامك ويمحي أوجاعك، وينسيك كل شرور العالم، ويمدّك القوة اللازمة لمواجهة المعوقات، ويمحنك القدرة لتقبل جميع الأشياء التي لم تكن تستطيع تحملها.

لمست تلك الكلمات فؤادي، ونظرت إليه وكأنه هذا الأمل الباقي أمامي في العلاج، لا أعرف هل سيشعر بي يومًا أم لا، ولكنه أصبح يسيطر على كل كياني، ويتحكم على نفسيتي وتفكيري بشكل جنوني، لا أظن أنه مهتم بي كما أشعر تجاهه، كل ما في الأمر أنه يكرمني في المعاملة لأنني من طرف صديقه محمود.

سألتها: وهل يمكن للحب أن يفعل ذلك حقًا؟

- لا تستهيني بتلك الطاقة الجبارة؛ فهي تفعل المعجزات، ليس فقط حب امرأة لرجل أو العكس، وإنما الحب بمعناه المطلق، بما يحتويه من حرية وعطاء وود وسلام.
- لي سؤال آخر إن سمحت لي يا دكتور عمر؟
- تفضلي.

- لماذا كل الحضور من السيدات، أليس هناك رجال يصابون بهذا المرض؟
- بالطبع هناك رجال مصابون بالمرض، ولكنه يصيب السيدات أكثر، وبالتأكيد سينضمون تباعًا إلينا.

حكاياتهن تلك أخبرتني كم هو شخص ناجح ومتميز حقًا؛ فشعوري لم يخطأ بعد، وازداد إعجابي به، وتلك الجلسة حسّنت أيضًا من نفسيتي، لأنني وجدت أشخاصًا يشبهونني، قاطع تفكيري عمر: وأنتِ ألن تخبرينا حكايتك؟

أنا هبة، 35 عامًا، مطلقة، أظن سبب تعبي هو اختياري شخصًا غير مناسب ليشاركني حياتي، كنت أظنه ذلك بسبب مظاهر سطحية، وربما هو لم يعط لي فرصة في التفكير في مدى ملائمته لي، هو قرر كل شيء حتى إنني أحبه؛ لذلك أشعر أنني بدأت في التعافي بعد التخلص منه، والآن أفكر في كل ما يسعدني، دون أن أضغط على نفسي من أجل أحد، وما توصلت إليه الآن أننا نخسر كثيرًا من أرواحنا وأنفسنا عندما نخالط أناسًا لا يشبهوننا دون أن ندري، حتى نشعر أن طاقتنا استنفزت، ومشاعرنا انتهكت،

فصاحبوا من يشبهكم حتى لا تعانوا ويلات الاغتراب بين المقربين، والوحدة وسط الصحبة، والحالتان تولدان الآلام.

أخبرنا عمر أنه قد حان الوقت لاستراحة تناول الغداء، يليها جلسات اليوجا والسباحة، تناولنا الغداء سويًا مع بقية المجموعة، فهو فرّغ نفسه هذا اليوم من أجل قضائه معهم، والتقرب منهم، ظهرت روحه المرحة وحبه للحياة، ومساعدة الغير، وازداد إعجابي به، كلما اقتربت منه تنتابني طاقة حب، انتهينا من تناول الطعام، ثم توجهنا لليوجا، وبعدها جاء وقت السباحة، ولكنني لم أنزل وبقي عمر معي، التقطنا صورًا "سيلفي" لنا سويًا، وتحدثنا عن تلك الحالات التي سمعتها، وعن خطته في التوسع في ذلك.

- لا تقلقي سأعلمك السباحة، ولكن ليس الآن.
- لست قلقلة على الإطلاق.
- سعيدة؟
- للغاية، لم تغمرني تلك السعادة من قبل.
- الحمد لله، كل ما يهمني أن أخفف عنك آلامك.
- أنا أثق في ذلك؛ فقد أخبرتك من قبل أنني مؤمنة بك، والآن ازداد إيماني بعد ما رأيت ما تفعل من أجل مرضاك، تفكيرك خارج

الصندوق، تتسم بكل صفات القيادي الماهر الموهوب في مجاله صاحب الإرادة القوية.

- أنا كل ذلك؟
- نعم.

انتهى اليوم بعد جلسات المساج التي يجريها متخصصون في المجال، انصرف أغلب المرضى المقيمين في الإسكندرية، صعدت إلى غرفتي، وأعددت تقريرًا عن هذا المرض مزودًا بالحالات الواقعية التي رصدتها وبعض الصور التي التقطتها لمن وافق منهم ومقاطع الفيديو، أرسلته للنشر، وظللت أتأمل في الصورة الـ"سيلفي" التي التقطها لنا عمر، قررت أن أشاركها على حسابي الشخصي على فيسبوك.

ذهبت في سبات عميق بكل بساطة، وكأنني لم أشعر بالأرق من قبل، أعلم أن ذلك بسبب سحر الطبيعة ومفعول عينيه، ورقة قلبه التي تريح الأعصاب، استيقظت وداخلي شعور بالراحة لم أشعر به من قبل، إحساس السكينة والأمان والحب، لا أريد أن أفكر في أي شيء سوى تلك الحالة الفريدة التي أعيشها.

10

اتصلت بي أمي، اهتز كياني ليفيقني من خمولي، وينشط ذهني ليذكرني بكلامها في آخر حديث بيننا، ربما ستحاول إقناعي بالذهاب لهم، لا أريد أن أدخل في نقاش وأنا هائمة في ملكوتي الخاص، ولكن لا يمكن ألا أرد عليها حتى لا تقلق، أجبتها: صباح الخير يا أمي الحبيبة.

- صباح النور، كيف حالك يا صغيرتي؟
- بخير الحمد لله.
- أشعر أن مزاجك أفضل.
- بالفعل، أعددت موضوعًا إنسانيًا مميزًا.
- لطيف هذا الشخص الذي معك بالصورة يبدو عليه حسن الخلق، جعله الله من نصيبك يا بنيتي.

تفاجأت بتلك الكلمات، لقد شعرت بي أمي، ولا أعرف بمَ أجيب عليها، ولكن قلبي كان فرحًا بتلك الدعوة، التي لا أعرف كيف تتحقق، استكملت كلامها: أرى بينكما انسجامًا، وتناغمًا، وإعجابًا، أسعدك الله به.

- أشكرك يا أمي، أنا ما زلت في الإسكندرية سآخذ جولة هنا قبل أن أعود.

أغلقت المكالمة ووجدت اتصالًا من عمر: ما كل هذا النوم؟

- لقد استيقظت منذ دقائق.
- نمتِ جيدًا؟
- لدرجة لم أتخيّل أن أصل إليها يومًا، فكأنني أول مرة أنام بحياتي.
- أراح الله بالك وقلبك.
- آمين يا رب، ولك مثله.
- ألا تودين أن أعلمك السباحة؟
- بالطبع.
- هيا استعدي، هل أحضرتِ ملابس السباحة.
- نعم، ألن نتناول الإفطار أولًا؟
- بالطبع، سنفطر أولًا.

كنت سعيدة وأنا بصحبته، لا أعلم ما نهاية هذا الشعور من طرف واحد، فهو لا يشعر بأي شيء تجاهي، جميع تصرفاته تخبرني بذلك وبوضوح يجعلني أشعر بالخجل أمام نفسي، وحتى إن كان متبادلًا بالتأكيد يريد الإنجاب، وإن ارتبطنا سأتسبب له في ألم طيلة عمره، كل المؤشرات تؤكد لي ضرورة الابتعاد فورًا قبل أن أغرق أكثر من ذلك، ولكني لا أستطيع مقاومة إحساسي بالانسياق تجاهه، وجدنا أحد العاملين يخبره بأن هناك

شخصًا يريد مقابلته، إنه محمود زوج سارة، رحب به كثيرًا وجلسنا سويًا نتناول الفطور، قال محمود: لقد وصلت توًا من القاهرة، تحركت بعد الفجر، كنت أريد أن أختلي بنفسي، ولكن عندما تذكرت أنك هنا اليوم جئت أسلّم عليك.

- تشرفني يا صديقي في أي وقت، ولكن ماذا بك؟
- ذهني أصبح عاجزًا عن التفكير، لدي مشكلة لا أجد لها مخرجًا.
- ماذا؟
- سارة حامل.
- وأنت بالطبع لا تريد، غريبة تلك الدنيا تعطي من لا يريد، وتمنع عن مَن يريد.
- صراحة أنا أحقد عليكما؛ لأنكما لا تستطيعان الإنجاب، لقد وهبكما الله أكبر منحة؛ حتى لا تنجبا أطفالًا دون تحمل مسئولية أو تأنيب ضمير، لا أعرف كيف أنتما ترونها مشكلة؟

نظر كل منا إلى الآخر، رأيت لمعة فرح في عينيه لم أرها من قبل، وربما رأى في عيني مثلها، فقد أسعدني هذا الخبر، فهو أيضًا لديه عيب يمنعه من الإنجاب مثلي ولن يتعذب معي، على العكس سنكون متوافقين، ولن يعير

أحدنا الآخر، أول مرة منذ عرفته أرى نظرة حب تجاهي، ولكني لا أريد أن أعشم نفسي، ربما مجرد فرحة عادية؛ لأننا نشبه بعضًا.

قلت له: أعد التفكير فيما تريد، بالتأكيد سارة لم تشأ فعل ذلك كما تظن، على العكس هي في أشد الاحتياج إليك الآن، لأنها أيضًا تفاجأت مثلك، ولم تتوقع حدوث ذلك الآن، تلك إرادة الله، إرادة الله فقط.

- أعلم أنني قسوت عليها، ولكن رغمًا عني، فقد شلّت المفاجأة عقلي، أنا لا أستطيع أن أكون أبًا، لا يمكنني أن أتحمل ذنب طفل يتأثر بكل كلمة أو تصرف أو فعل من المحيطين به، إن كنا نحن نتحمل حياتنا بالكاد، فكيف سيتحمل هو؟!
- وما ذنب سارة؟ هي مثلك تمامًا، لا تستطيع التفكير بمفردها، لقد تخليت عنها في أشد احتياجها إليك، اجلسا سويًا وقررا، وفي رأيي لا ترفضا نعمة الله عليكما، حتى لا تصابا بغضبه.

دخل عمر في الحديث: اتركه يا محمود، سيأتي برزقه، وإن لم تستطيعا تربيته وتحمل مسئوليته، امنحوه لي سأؤدي أنا تلك المهمة بدلًا منكما.

ابتسم محمود وقال له: هَم يضحك حقًا.

رد عليه عمر: كيف تقول على رزق الله هم، أتصدق أنك لا تستحقها، سأحدث سارة لتحتفظ به لي، وأمه موجودة إن لم ترده هي أيضًا.

نظرت إليه بتعجب، يبدو أنني لم يُكتب لي فرحة مكتملة، لقد قال إن أمه موجودة، بالتأكيد هو مرتبط، ويتحدث عن رفيقته تلك، وليس بعيدًا أن يدعوني بعد قليل لحضور زفافه.

نهض محمود فجأة، وقال: سأرحل أنا.

رد محمود: انتظر، أين أنت ذاهب؟

- سأعود إلى سارة، لا يجب أن أتركها في هذا الموقف أكثر من ذلك.
- عد إلى رشدك، وفكر جيدًا قبل أي قرار؛ حتى لا تندم.

قلت له: سارة تحتاج إليك حقًا، حاول تعويضها عن الأيام القليلة الماضية؛ فهي لا تستحق منك ذلك.

- معك حق، سأعتذر لها وأفعل ما تشاء، كان عليّ ألا أتصرف هكذا كالأطفال الذين يتهربون من المسئولية، أعترف أنني مذنب، ولكني كنت أحتاج إلى أحدٍ يدفعني لأذهب إليها.

رحل محمود، وبقينا سويًا نستكمل الفطور، سألني: ما رأيك في تلك المشكلة؟

- أنا أؤمن بالحرية الشخصية، وأحترم قناعات الغير، ولكني أود أن يتركاه يكتمل، ربما لأنني كنت بحاجة إلى مثله ولكن إرادة الله لم تشأ، وأنت؟

- مثلك تمامًا، لا أريد الحجر عليه لمجرد أنه صديقي، ولكني أتمنى أن يتركاه يأتي للحياة.

إعجابي به يزداد لحظة بعد الأخرى، لا يمكن أن يكون بداخلي كل هذا الشعور وهو لا يشعر به، لو كان صنمًا لتحرك، يبدو لي بلا مشاعر، برغم كم هذا الحنان الذي يغمر عينيه، دعاني عمر إلى استبدال ملابسي لأستعد للسباحة، وبالفعل فعلت.

كنت أخشى النزول إلى حمام السباحة، وأرتاب لمنظر المياه العميقة؛ فقد غرقت تارة في البحر وأنا في السادسة من عمري، بعدها أصابني رعب شديد من السباحة أشبه بـ"فوبيا"، ولم أتجرأ على التعلم مرة أخرى، ولكني الآن بصحبة الشخص الأكثر طمأنينة بالنسبة لي، ربما شعوري بالأمان معه يغلب خوفي، وبالفعل اجتزت أول خطوة بالنزول، ثم طلب مني أن أترك نفسي تمامًا للمياه، كنت أود أن أخبره أنني أسلّم له وجداني كله، وتركت له نفسي منذ أن عرفته، ولكن كان عليّ التفكير في السباحة، ليس بغية تعلمها بقدر ما هو بهدف الاقتراب منه، والسكينة بين يديه، تركت نفسي تستلقي على المياه الحانية التي تداعب ظهري برفق، نظرت إلى السماء الصافية، سبحت في لونها الأزرق النقي، انجذبت إليها كطفلة تستريح في كنف أمها.

شعرت بأنني أذوب بين أحضان الطبيعة الخلابة، تهت بين أذرعها التي تحيطني من كل مكان، ويد عمر تعانق يدي لتطمئنني.

لم نطل كثيرًا، تحركنا بين أحضان المياه، وصعدنا من حمام السباحة وهو يقترب مني ويهمس بأذني: "أحبك"، لا أعلم هل ما سمعت حقيقة أم تهيؤات بعد تجربة جديدة بالنسبة لي، فبعد أن خرجنا وجففت نفسي بالمنشفة، وجدته يتصرف بشكل طبيعي وكأن شيئًا لم يحدث، غضبت كثيرًا لأنني وصلت إلى تلك الحالة التي أتوهم فيها كلمات أتمناها، استأذنته للذهاب إلى غرفتي، وصعدت إليها ونفسي ممتلئة بالشجن، مجرد أن رأيت السرير استلقيت عليه وبكيت، لقد أشفقت كثيرًا على نفسي، فكأنها كتب عليها أن تعيش حياة يختارها غيرها، وعندما تختار لا تستطيع أن تصلها، حتى يصل بي الأمر للجنون، قلبي يتلوع شوقًا لشخص لا يشعر بي مطلقًا، ولا يأبه بشعوري، بالنسبة له مريضة يريد علاجها، ولكن نفسي فسرت اهتمامه شيئًا آخر؛ لأنها تريد ذلك.

عليّ التركيز في عملي ومستقبلي بدلًا من السعي وراء أوهام لا وجود لها سوى داخلي، لقد سئمت من تلك الحياة التي لا راحة لي فيها، فهي لا تعطي محتاجًا أبدًا، ولن تنيلني ما أريد، سأجهز حقيبتي وأغادر، لا أعلم هذا الطريق، ولكن بالتأكيد سأجد أية مواصلة بالخارج توصلني إلى

القاهرة، سمعت رنات التليفون، إنه رئيس التحرير، يبدو أن هناك كارثة قد وقعت بجملة المصائب التي تهل علينا.

أجبت: صباح الخير.

- صباح النور يا هبة، ألم تشاهدي على محادثة "جروب" العمل على فيسبوك اليوم؟
- لا، عذرًا، لقد انشغلت قليلًا هذ الصباح بعد إرهاق يوم أمس في التحقيق الذي أعدته عن "فيبروميالجيا"، ألم تقرأه؟
- بالفعل قرأته، وقد أحدث صدى غير متوقع، وحققت قراءات هائلة، لذا قررت صرف مكافأة لك، وهناك أيضًا خبر سار.
- ماذا؟
- القنوات التليفزيون يتهافتون لعرض المادة الفيلمية التي نشرناها، بمقابلة مادي ممتاز، وبالطبع لك نسبة منه، عندما أراكِ غدًا سأخبرك بكل شيء.
- أشكرك، ولكن لدي طلب بسيط.
- أؤمري عزيزتي.
- أريد أن أترك قسم الحوادث؛ لقد استكفيت منه، يمكنني أن أؤدي نفس الدور في التحقيقات مثلًا، بعيدًا عن أخبار الحوادث السريعة المثيرة للأعصاب.

- لكِ ما تشائين ما دمت ستبدعين به كما فعلتِ.

لم أكن حتى تلك اللحظة رأيت التقرير بعد النشر، كنت أعددته عن قصص البنات الواقعية، وطرق العلاج ورأي عمر، وتصوير جلسات العلاج بمركزه، قررت أن أراه؛ فعملي هو الباقي لي، عليّ أن أتأقلم على ذلك؛ خاصة أنني أحبه، رأيت نهاية كلماتي في التحقيق: ليس فيبروميالجيا مجرد مرض عضوي غامض لا نشعر بمعاناة المصاب به، ولكنه وباء يصيبنا جميعًا، ينهش كل يوم فينا دون أن يشعر بنا أحد، هو ذاك الألم الذي يقتلنا يوميًا آلاف المرات دون أن يدرك المحيطون بنا، هو ذلك الألم الذي يُكبت فيولد العنف والجريمة، هو تلك اليد القصيرة العاجزة عن إنقاذ نفسها وأسرتها من الأزمات التي تلاحقها وسط غلاء الأسعار وفساد المجتمع وتغيب المسئولين، ولا يمكننا علاجه سوى بتغيير أنفسنا جميعًا؛ حتى يسود الحب والوئام والسلام وتنتهي الأنانية والحقد والضغينة القاتلة.

رأيت عمر أمام عيني مرة ثانية، لا أعرف كيف توغل كذلك في صدري، ولماذا لا أقاومه، هذا هو الأمر الحتمي الذي سأفعله آجلًا أم عاجلًا، فلماذا أنتظر حتى يفرض عليّ ويصبح أمرًا واقعًا، لن أتحمل هذا مطلقًا، سأجهز حقيبتي لأنصرف، لكن ذلك سيثير الشكوك حولي، ولا أريد ذلك، يجب أن أكون طبيعية أمامه؛ فلا يشعر بضعفي تجاهه، فهو كبقية

الرجال، حتمًا لا تستهويه تلك المرأة التي وقعت بغرامه قبل أن يصارحها، فكيف بمن جنّت به دون أي سبب، سمعت صوت التليفون مرة ثانية ولكنه هزّ كياني قبل أن أرى اسمه على الهاتف، رددت عليه: صباح الخير.

- أين أنتِ؟
- معذرة لقد أصابني بعض الإرهاق، وأحتاج إلى راحة.
- طمئنيني عليكِ. هل أنتِ بخير؟
- نعم.
- تودين أن أكشف عليكِ؟
- لا أنا بخير، بحاجة فقط إلى النوم.

لم أكن بخير، ولم أكن بحاجة فقط إلى النوم، ولكن لا يمكن أن أقول غير ذلك؛ لحفظ ما تبقى من كرامتي أمام نفسي، حتى إن كان حقًا لم يتلفت إلى إعجابي به، كنت أشعر بنار تلتهب داخل صدري، وغضاضة تعيقني عن أي شيء، انهالت مني دموعي، عرفت الآن معنى هذا الذي يسمونه حبًا من طرف واحد، لم أكن أتوقع أن يكون بتلك القسوة على النفس، ولم أكن أتخيل أن يصيبني ذات يوم، وأنا شخصية عملية وعقلانية، حتى هيثم اخترته بناء على مواصفاته الجيدة وحبه لي، ولولا ذلك لما فعلت.

مرّت ساعات وأنا أعاني ويلات تلك الحالة المفجعة ودموعي لا تتوقف، قبل أن أسمع طرقات على الباب، قلت: مَن؟

- افتحي يا حبيبتي، أنا سارة.
- سارة!

نهضت مسرعة، وفتحت لها الباب: هل أنتِ بخير؟ ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- حدثني محمود وأخبرني أنه في الإسكندرية وسيعود فعرضت عليه أن آتي إليه، ربما تتحسن حالتنا وسط الطبيعة، ولكن كان عليّ أن أطمئن عليك هنا، كنت أتوقع أن تكوني سعيدة، لماذا أرى هذا العبوس على وجهك؟
- لقد استفقت من أحلامي وتخيلاتي المريضة، فقد تيقنت أنني لا أمثل له سوى مريضة من طرف صديقه، ويريد الاعتناء بي؛ حتى أشفى من مرضي هذا، وربما يكون مشفقًا عليّ ليس أكثر من ذلك.
- لماذا تقولين هذا؟ أخبريني ماذا حدث؟
- لم يحدث شيء سوى خيالاتي المريضة، كان يعلمني السباحة كما اتفقنا.
- حسنًا هذا أمر جيد، وهل هناك طبيب يعلم مريضته السباحة؟

- كنت أظن مثلك تمامًا حتى تيقنت من ذلك، لقد تعامل معي بشكل جاف بعد ذلك، كل مشاعري تلك المتأججة قابلها ببرود جم لا أستطيع تحمله أو حتى تقبله، أنا ألوم نفسي؛ لأنها تعلقت بشخص لا يشعر بها، لا أعرف كيف فعلت ذلك بنفسي، بعد التجربة التي مررت بها كان عليَّ ألا أطمئن لأي شخص من هذا الجنس.
- اهدأي، من قال إنه لم يشعر بك؟ ربما فسرت تصرفاته بشكل غير حقيقي.
- لا، هو حقًا لا يشعر بي، لقد تيقنت من ذلك، كنت أمنح نفسي آمالًا وأحلامًا من أجل البقاء في تلك الحالة المبهجة فحسب.
- لا تتعجلي يا حبيبتي، دعي الأمور تأتي كما تشاء.
- عذرًا حملتك همي، وأنتِ بك ما يكفي، ماذا فعلتِ مع محمود؟
- حدثني وتصالحنا وأخبرني أنه موافق على استكمال الحمل، ولكنه يحتاج مهلة حتى يتأقلم على هذا الوضع الجديد، وأخبرته أنني أيضا كذلك، وسنفعل ذلك سويًا، وربما هو الخير لنا، وإن لم يكن خيرًا سيذهبه الله بأمره وليس بتدخلنا، وأخبرني عن كلامك معه الذي دفعه لمحادثتي على الفور وأشعره بالندم أكثر مما كان، وأيضًا كلام عمر، عرفت أنه طلق مرتين بسبب عدم قدرته على الإنجاب مثلك، أليست تلك علامة؟

- كنت أظن ذلك، ولكن يبدو أنه مرتبط، شعرت هذا من حديثه.
- لا تستبقي الأحداث، وهيا بنا لننزل لهما؛ لنتناول الغداء سويًا، لقد أحضر لنا طعاما تحبينه: سمك، أتقدرين على مقاومته؟

تبسمت وقلت لها: بالطبع لا، سأتناوله ثم أعود إلى قوقعتي.

نزلنا لتناول الغداء، وظلوا يتبادلون الضحكات والهزل والسخرية، بينما التزمت أنا بصمت وركزت كل تفكيري على تناول الطعام الذي أحبه، انتهينا من تناول الطعام، ثم اقترب مني: هل أنتِ بخير؟

- نعم
- أشعر أنك حزينة، أوَ كنت تبكين؟
- لا، مجرد إجهاد ولم أنم جيدًا.
- ولكنك أخبرتيني صباحًا أنك نمتِ جيدًا.

نظرت إليه في صمت لا أعرف ماذا يريد مني هذا الرجل، ولقد تمكنت من إحكام سيطرتي على نفسي، هو لن يهدأ سوى عندما يقلب عليّ شعوري ويعيد سيطرته على جميع جوارحي، ولكن لن أترك له الفرصة.

- هبة، أنا أحبك.
- نعم!
- أحبك.

لم أكن أستوعب ما يقول، لربما تهيؤات كما حدث من قبل: هل فيبروميالجيا يتسبب في هلاوس؟

تبسم وقال لي: ليست هلاوس، أنا قلت إنني أحبك، وأشعر أنك تبادلينني نفس الشعور، ولكن كنت أخشى من مشكلة الإنجاب لدي.

- من قال إنني أبادلك نفس الشعور؟ لقد خانك إحساسك.

صمت قليلا قبل أن يقول لي: متأكدة؟

- نعم، لقد أخطأت الفهم، ربما أنا منبهرة بعلمك وخلقك وشخصيتك الفريدة، وتفكيرك المتميز، ولكني ...

بدأت الدموع تغرغر في عيني قبل أن أقول: لقد جففت دمي حتى أسمعها منك، وتريد أن أخبرك بها بكل تلك السهولة.

- إذن شعور متبادل.
- مثلك لا يمكن ألا أحبه.

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.